

روايات مصرية للجيب

زهور

١٢

رحلة قلب

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رحلة قلب

يا مركب الأتراح خوضى فى الجراح
وابحثى فى بحـر حزنك عن هـوية
واصرخى وسط العواصف والريـاح
صارت الأقـدار تغتال القضيـة
أين قلبى ؟ هل هوى بين النـواح ؟
أين نفسى ؟ ويلهـــا سقطت ضحية

(نبيل)

١ ـ البداية ..

اختلط صراخ سيدة شابة ، فى منتصف العشرينات من عمرها ، بقصف القنابل المسموع فى وضوح ، فى مدينة (بور سعيد) ، فى أثناء حرب يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ، وهى تعبر بوابة قسم الولادة ، بمستشفى (بور سعيد) العام ، وهتفت السيدة العجوز التى ترافقها ، فى صوت لاهث ، متقطع الأنفاس :

ـ أسرعوا أيها الأطباء .. ابنتى تَلِـدْ .. إنه طفلها الأول .

كان الألم واضحاً فى ملامح السيدة الشابة ، وفى محياها الجميل الرقيق ، مما دفع ممرضات المستشفى إلى الإسراع لمعاونتها ، ونقلها إلى حجرة الولادة ، فى حين ألقت العجوز جسدها المنهك فوق مقعد متهالك ، وهى تتضرَّع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعاون ابنتهـا ، وتعلق بصرها بطبيب شاب ، أسرع إلى قسم الولادة ، واختفى فى الحجرة التى حملت الممرضات ابنتها إليها ..

كانت أنفاس العجوز تزداد ضيقاً وصعوبة ، مع الانفعال الشديد الذى تملكها ، مع قلقها على ابنتها ، وأسفها على غياب زوج ابنتها ، الضابط بالقوات المسلحة ، فى مثل هذه الظروف ، وذلك التوتر الواضح فى طرقات المستشفى ، مع وجود كل هذا العدد من الجرحى ، الذين أنجبتهم معارك نكسة يونيو ، وانهماك أطباء المستشفى جميعهم فى معالجة عشرات الجرحى ، وإسعاف مئات المصابين ..

وتعلقت أبصار العجوز بحجرة الولادة ، وقد باتت أنفاسها تعبر حلقها فى صعوبة رهيبة ، وانفعالها يتضاعف ويتزايد ، وصراخ ابنتها يعبر أذنيها كخناجر مسمومة حادة ، تمزّق نياط قلبها ، وتستقر فى حلقها ، لتعوق مزيداً من أنفاسها ..

وفى حجرة الولادة كان الطبيب الشاب يحاول بذل أقصى جهده ، لمعاونة الأم الصغيرة ، التى بدت شديدة الضعف والتخاذل ، وارتفع نبض قلبها إلى الذروة ، مع انقباضات رحمها ، الذى يبذل بدوره

جهداً كبيراً للفظ الجنين ، الذى يجاهد للتحرر منه ..

التفتت إحدى ممرضات القسم إلى الطبيب الشاب ، وقالت فى قلق :

– هل تظن أنها ستحتمل يا دكتور (صبرى) ؟

عقد الدكتور (صبرى) حاجبيه ، وترك ممرضة أخرى تجفف العرق الغزير المتصبب على وجهه ، وهو يغمغم :

– لست أدرى !! .. إنها تبدو شديدة الضعف ، وأخشى أن ....

لم يتم عبارته ، ولكن الأسف الواضح فى ملامحه أوضح ما يعنيه ، ولكنه ظل يبذل أقصى جهده لإنقاذ الأم وجنينها ، حتى لم يعد يسمع قصف القنابل ، وتحركات زملائه القلقة فى أروقة المستشفى ..

وأخيراً التقطت يداه الجنين الصغير ، وأسرع يعقد رباط سرّته ، وهو يقول فى انفعال :

– إنها طفلة جميلة .. تشبه أمها تماماً .

خفق قلب الأم الصغيرة فى شدّة ، وهى تهتف فى صوت وصل إلى ذروة ضعفه :

- طفلة ؟!.. دعنى أرها بالله عليك .

ولكنها لم ترها أبداً ...

لم يحتمل قلبها الضعيف هذه الخفقة الأخيرة، فسكن واسترخى ، بعد أن اطمأن إلى خروج الجنين إلى الحياة ..

يا لها من لحظة ، انبعثت فيها الحياة وخبَت !!

ارتفع صراخ المولودة الصغيرة ، وسكن فيها صوت الأم الشابة ..

لحظة أعطت للدنيا حياة جديدة ، وسلبت منها حياة أخرى ..

وترقرقت الدموع فى عيون الممرضات ، وبكى الطبيب الشاب ، وهو يحاول فى يأس إنقاذ الأم الشابة، وإعادة الأنفاس إلى صدرها الساكن ..

وأخيراً توقفت محاولته، وسالت دموع الحزن على وجهه ، وغمغمت إحدى الممرضات وهى تبكى :

- ألا يوجد ما نلفّ به جسد الصغيرة ؟

أشارت ممرضة أخرى إلى الخارج ، وقالت :

- هناك سيدة عجوز كانت تصحب الأم - رحمها الله - وربما كان معها ما يفيد .

قالت عبارتها وأسرعت إلى الخارج ، ثم لم تلبث أن عادت وهى ترتجف من فرط الانفعال ، وقالت فى صوت مرتعد ، حزين :

- ربّاه !! لقد لفظت العجوز أنفاسها بدورها ، وهى تجلس على مقعدها فى الخارج ..

سادت الدهشة لحظة فى حجرة الولادة، واختلطت بشفقة شديدة نحو الطفلة الصغيرة ، التى جاء مولدها مرادفاً لموت أمها وجدّتها ، ثم أسرع الدكتور (صبرى) ينزع معطفه الأبيض ، ويناوله إلى إحدى الممرضات، وهو يقول فى لهجة مشفقة حزينة :

- سيؤدّى هذا الغرض .

ثم أردف فى حزن :

- أى اسم ستحمل هذه الصغيرة الجميلة يا ترى ؟

غمغمت إحدى الممرضات :

ـ إننا لا نعلم حتى اسم أمها ، فقد جاءت فى رداء النوم كما ترى .

التقط الدكتور (صبرى) الطفلة الصغيرة ، التى استكانت داخل معطفه الأبيض ، وداعب رأسها الصغير فى شفقة وحنان ، وهو يغمغم :

ـ كل مخلوق فى هذه الدنيا لابد وأن يحمل اسماً مّا .

قالت إحدى الممرضات ، وهى تتأمل الصغيرة فى شفقة :

ـ يبدو أن الصغيرة ستكون أول استثناء للقاعدة يا دكتور (صبرى) ، فمن العسير فى ظل هذه الظروف أن نبحث عن والدها ، أو نحتفظ حتى بجثتى أمها وجدّتها ، حتى يتعرفهما أحد ، فالحرب قد ....

قاطعها الدكتور (صبرى) ، وهو يضم الصغيرة إلى صدره :

ـ حتى فى هذه الحالة أيضاً ، لن تستثنى الصغيرة من القاعدة ، وستحمل اسماً بالضرورة .

قلبت إحدى الممرضات كفيها ، وقالت :

ـ ولكن أىّ اسم ؟

ساد الصمت لحظة فى حجرة الولادة ، تأمل الدكتور (صبرى) خلالها وجه الصغيرة الرقيق ، ثم لم يلبث أن ضمها إلى صدره ، وهو يقول فى حزم :

ـ لو لم تمنح الظروف هذه الصغيرة فرصة حمل اسم والدها الأصلى ، فستحمل اسماً مألوفاً لديكنّ .

ثم أردف فى حنان :

ـ اسم (صبرى مختار) .

وعادت عيون الجميع تمتلئ بالدموع ..

* * *



٢ ـ ومضت السنوات ..

القاهرة عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين ..

أوقف الدكتور (صبرى مختار) ، طبيب أمراض النساء والتوليد الشهير ، سيارته الأنيقةأمام فلّته الهادئة ، فى أرق أحياء العاصمة ، وهبط منها وهو يبتسم تلك الابتسامة ، التى لا تفارق وجهه أبداً ، وعبر باب الفيلا بخطواته الهادئة ، ووجهه الوسيم ، وشعره الأشيب ، الذى غمر فَوْديه عن آخرهما ، فمنحه مظهراً وقوراً متزناً ، واتسعت ابتسامته فى حنان غامر ، حينما رأى ابنته (سهام) ، وهى تسرع إليه فى مرح وسعادة ، وتتعلق بعنقه ، وهى تهتف بلهجتها الرقيقة :

ـ أوحشتنا كثيراً يا أبتاه .. إننا لا نراك إلا ليلاً ، منذ بدأت فى إقامة مستشفاك الخاص .

قبّل وجنتها فى حنان ، وهو يقول :

ـ هذه ضريبة النجاح يا بنيتى .

عقدت حاجبيها الجميلين ، وهى تقول فى اعتراض :

ـ ولكننا نحرم رؤيتك .

ربّتت على كتفيها فى حنان ، وقال :

ـ ألا أصحبكنّ دائماً إلى نزهات جميلة أيام الجُمَع ؟

ضحكت فى مرح ، وهى تحيط عنقه بذراعيها ، وتقبّل وجنته ، قائلة :

ـ هذا لا يكفى يا أبى .

ابتسم ، وهو يسألها ، محاولاً الفرار من نقاشها :

ـ أين أمك ، وشقيقتك ؟

ضحكت ، وكأنما تنبهت إلى محاولته ، وقالت :

ـ أمى فى المطبخ ، تصرّ كعادتها على إعداد الطعام بنفسها ، على الرغم من اعتراض (شوقية) ، و(منى) فى حجرتها ، تستمع كالعادة إلى أحدث التسجيلات الموسيقية .

ضحك ، وهو يقول :

ـ ما رأيك أن نفاجئهما ؟

تألق المرح فى عينيها ، وقالت فى همس :

ـ نعم .. سيكون ذلك طريفاً .

سارا على أطراف أصابعهما إلى المطبخ ، كطفلين

مرحين ، وتوقفا لحظة أمام بابه ، يستمعان إلى الخادمة (شوقية) ، وهى تقول فى اعتراض :

– لن تكون رائحة الطعام شهية ، دون إضافة كمية كافية من التوابل يا سيِّدتى .

أجابتها الأم فى اعتراض مماثل :

– لو أنك تجيدين الطهو ، لعلمت أنه ثمة وسائل أخرى لإعطاء الطعام رائحة شهية ، دون استخدام مزيد من التوابل يا (شوقية) .

غمغمت (شوقية) فى غضب :

– ولكننى أجيد الطهو بالفعل .

أطلقت (سهام) ضحكة مرحة ، جذبت انتباه الأم والخادمة ، فى حين اتسعت ابتسامة الدكتور (صبرى) ، وهو يقول :

– سنقيم يوماً مسابقة للطهو بينكما ، لحسم هذا الخلاف .

تهللت أسارير الأم ، وقالت فى سعادة :

– سأفوز حتماً يا زوجى العزيز ، مرحباً بعودتك إلى المنزل .

فى حين غمغمت (شوقية) فى اعتراض :

– من يدرى ؟

ضحك الجميع فى مرح ، وعادت الأم تنهمك فى إعداد الطعام ، وهى تقول :

– والآن ممنوع على الرجال الدخول إلى المطبخ .

رفع الدكتور (صبرى) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

– هذا يعنى أننى الوحيد المعنىّ بهذا القرار فى الفيلا .

ثم جذب (سهام) من يدها ، وقال :

– دعينا نصعد إذن إلى حجرة (منى) .

كانت أصوات الموسيقى العالية تبدو واضحة ، حتى قبل أن يفتح الأب باب حجرة ابنته ، التى كانت ترقد مغمضة العينين على فراشها ، ويداها تتماوجان فى الهواء ، مع نغمات الموسيقى العالية ، حتى أنها لم تشعر بدخول والدها وشقيقتها ، إلا عندما جلس الوالد على طرف الفراش ، وهتف فى صوت مرتفع :

– هل يمكننا الدخول ؟

فتحت (منى) عينيها فى دهشة ، ثم اتسعت ابتسامتها ،

وهى تتعلق بعنق والدها ، وتصيح فى فرح :

– لقد دخلتما بالفعل يا أبى .

أوقف الدكتور (صبرى) سيل الموسيقى ، وقال وهو يبتسم :

– ألا تؤذى هذه النغمات المرتفعة أذنيك يا (منى)؟

تألق خبث مرح فى عينيها، وهى تضع كفها خلف أذنها ، وتقول :

– ماذا تقول ؟ إننى لم أعد أسمع شيئاً .

ضحك الجميع فى مرح ، وقال الوالد وهو يقرص (منى) من وجنتها مداعباً :

– أرأيت ؟ ها قد أصابك الصمم فى سنّ مبكرة .

أغلقت عينيها ، ولوّحت بكفيها فى الهواء ، وهى تقول فى لهجة مسرحية :

– الصمم فقط ؟! .. إننى لم أعد أرى شيئاً .. هل أغلقتم النوافذ ؟

هكذا كانت حياة أسرة الدكتور (صبرى مختار) الصغيرة ...

كانت أسرة متحابة متماسكة، تضج بالمرح والسعادة والأمان ..

وكان هذا المرح يتبدّى دائماً حول مائدة العشاء ، حيث يتبادل الجميع الدعابات ، والمناقشات المرحة ، وحيث تلتقى الأسرة كلها عادة ..

كانت أسرة صغيرة ، تتكون من أب حنون ، وأم حانية ، و (سهام) ، التى يتألق جمالها طوال الوقت ، و (منى) ، التى لا يفارقها المرح أبداً ..

كانت الفتاتان مثالا للجمال والرقة ، فكلتاهما رقيقة الملامح ، رقيقة الجسد ، وإن اختلفت ملامحهما كثيراً..

(سهام) مستديرة الوجه ، سوداء الشعر ، ناعمته ، ينسدل شعرها على كتفيها حرًّا طليقاً ، ليحيط بحاجبيها الرفيعين ، وعينيها الواسعتين ، السوداوين ، وأنفها الدقيق الرقيق ، وشفتيها الرفيعتين الحمراوين ..

أما (منى) ، فلها وجه أقرب إلى الاستطالة ، وشعر كستنائى ناعم قصير ، تحرص دائماً على تصفيفه فى عناية ، وحاجباها منمقان ، ممتلئان بعض الشىء ، عند مقارنتهما بحاجبى (سهام) ، يرتفعان فوق عينين

كعيون المها ، عسليَّتى اللون ، براقتين ، ينسدل من بينهما أنف مستقيم ، ينتهى فوق شفتين صغيرتين ، مكتظتين ، كالفاكهة الناضجة ، وذقن دقيقة جميلة ..

ومن العسير أن يعلم المرء أيهما أقرب شبهاً لوالديهما ، فالدكتور (صبرى) مستطيل الوجه كـ (منى) ، أسود الشعر كـ (سهام) ، وعيناه عسليتا اللون مثل (منى) ، ولكن شفتيه رفيعتان تماماً مثل (سهام) ، وزوجته مستديرة الوجه ، دقيقة الأنف مثل (سهام) ، ولكنها تملك شعراً كستنائيًّا ، وعينين سوداوين وشفتين مكتظتين مثل (منى) ..

ولكن الأسرة كلها كانت تتميز بالوسامة والجمال .. والحب ..

فى تلك الليلة ، وحول مائدة العشاء ، تأمل الدكتور (صبرى) أسرته الجميلة فى حنان ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ لدىَّ مفاجأة صغيرة ، ادخرتها حتى ينتهى العشاء.

رفع الجميع رءوسهم إليه فى اهتمام وفضول ، وهتفت الأم :

ـ هلمَّ بها إذن ، قبل أن نتناول الفاكهة .

ابتسم وهو يتأمل وجوههنَّ لحظة ، قبل أن يقول :

ـ لقد انتهى العمل بالمستشفى الجديد .

تهللت أساريرهنَّ فى سعادة ، وهتفت (منى) فى مرح :

ـ يا إلهى !! .. أخيراً ؟

فى حين سألته الأم فى فرح :

ـ ومتى يتم افتتاحها يا (صبرى) ؟

اعتدل فى مقعده ، وقال وقد اتسعت ابتسامته ، وامتلأت بالسعادة :

ـ هذه هى المفاجأة الحقة ، فكلكم مدعوُّون صباح الغد لافتتاح مستشفى الدكتور (صبرى) للولادة .

ارتفع هتاف الفرح من أفواههنَّ ، واندفعْنَ يعانقنه فى سعادة ، وبدت الفيلا فى هذه اللحظة مهداً للسرور والحبور ..

ولكن القدر كان يدَّخر للأسرة الصغيرة مفاجأة أخرى ..

مفاجأة بلا موعد ..

* * *

٣ ـ الافتتاح ..

تأملت (سهام) و (منى) المستشفى الجديد فى سعادة ، وقالت (سهام) ، وهى تحتضن كف شقيقتها فى وُدّ :

ـ هل كنت تتصورين أن يمتلك والدنا هذا المستشفى الأنيق يا (منى) ؟

هزّت (منى) كتفيها ، وقالت :

ـ ولِمَ لا ؟.. إنه أكثر أطباء القاهرة شهرة ، فى مجال طب النساء والتوليد .

وافقتها (سهام) بإشارة من رأسها ، وتلفتت حولها ، وهى تقول :

ـ أين أمى ؟.. إننى لم أرها منذ لحظة الافتتاح .

ابتسمت (منى) فى مرح ، وقالت :

ـ أخشى أن تكون فى مطبخ المستشفى ، تصرّ على طهو طعام المرضى بنفسها .

ضحكت (سهام) لدعابة شقيقتها ، وقبل أن تلقى تعليقاً مماثلا ، سمعت كلتاهما صوت الأم تقول :

ـ أين أنتما ؟.. إننا ننتظر فى حجرة والدكما منذ نصف ساعة .

همست (منى) :

ـ يبدو أنها قد انتهت من إعداد الطعام .

ضحكت (سهام) ، وهى تجيب أمها :

ـ كنا نتفقد المستشفى يا أماه .

ابتسمت الأم فى حنان ، وقالت :

ـ حسناً .. والدكما ينتظركما فى مكتبه .

تبعتها الفتاتان فى هدوء إلى مكتب والدهما ، وما أن ولجتاه حتى توقفتا ، فقد وقعت عيناهما على شاب وسيم ، ممشوق القوام ، واضح الرجولة ، يقف إلى جوار والدهما فى احترام ، وهتف والدهما حينما رآهما :

ـ أين أنتما ؟.. أريدكما أن تقابلا الدكتور (أشرف) شعلة النشاط هنا .

التفت إليهما الشاب فى هدوء واتزان ، وبدا وكأنه يتأمل ملامحهما فى إمعان ، قبل أن يبتسم ابتسامة جذابة ، ويقول :

ـ تسعدنى مقابلتكما .

تأملتا ملامحه الوسيمة بدوريهما ..

كان يحمل وجهاً مستطيلا ، متناسقاً ، حليقاً ،

يضم حاجبين كثيفين ، وعينين خضراوين نفاذتين ، يلوح للمتطلع إليهما أنهما تخترقان أعماقه ، وتسبران أغواره فى ثقة واتزان ، وأنف مستقيم يميل إلى الطول ، وشفتين رفيعتين ، وذقن عريضة ، يغوص فى منتصفها طابع حسن غائر ..

ساد الصمت لحظة ، وهما تتأملان ملامحه الوسيمة ، قبل أن يقول الدكتور (صبرى) :

– الدكتور (أشرف) هو أكثر من رأيت من شباب الأطباء ، نشاطاً وإخلاصاً ومهارة ؛ لذا فقد حرصت على ضمه إلى مستشفاى الجديد ، وأنا واثق من أن شأنه سيعلو قريباً .

ابتسم الدكتور (أشرف) ،وقال فى صوت خافت :

– شكراً لمجاملتك يا سيدى .

ربّت الدكتور (صبرى) على كتفه ،وقال فى حنان :

– إنها الحقيقة يا بنىّ .

شعرت (سهام) بحرارة تسرى فى عروقها ، وهى تتأمل ملامح الدكتور (أشرف) ، وتصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، حينما بدأ عقلها يقارن بينه وبين

فارس الأحلام ، الذى يراود خيالها وأحلامها منذ زمن ، فأسرعت تنفض الفكرة عن رأسها ، وقالت فى صوت خافت مضطرب :

– هل تسمح لنا بتفقد المستشفى يا أبى ؟

هتف الوالد فى حماس :

– بالطبع يا (سهام) .

ثم أشار إلى (أشرف) مستطرداً :

– هلاً عاونتهما فى ذلك يا دكتور (أشرف) .

عادت دماء الخجل تندفع إلى وجه (سهام) دون مبرّر ، فى حين ابتسم (أشرف) ابتسامة رقيقة ، وقال :

– يسعدنى ذلك يا سيدى .

لم تستطع (سهام) تفقد المستشفى الصغير فى ذلك اليوم ..

صحيح أنها سارت إلى جوار (منى) و (أشرف) طوال الوقت ، واستمعت إلى كل كلمة نطق هو بها ، ولكن عقلها لم يكن يستوعب حرفاً واحداً ..

كان عقلها وقلبها منشغلين بتفقد (أشرف) نفسه ، وكأنها تريد معرفته أكثر ..

كانت تتأمل ملامحه طوال الوقت ، وإعجابها يتزايد برجولته واتزانه، حتى انتهت الجولة فى المستشفى، والتفت هو إليها بابتسامته الجذابة ، وهو يقول :

– هل أعجبك المستشفى يا آنسة (سهام) ؟

تلعثمت، وتضرّج وجهها بحمرة الخجل، وهى تغمغم:

– نعم .. كثيراً .

بدا لها أن الاهتمام كان يغلف صوته، وهو يقول :

– هل ستحضرين لزيارتها مرة أخرى ؟

وجدت نفسها تهتف فى حرارة :

– بلا شك .

أعقب هتافها شعور قوى بالخجل ، خاصة حينما قالت (منى) فى مرح :

– أينطبق هذا السؤال عليها وحدها ، أم أنه يمكننى مصاحبتها ؟

ابتسم (أشرف) ، وقال فى هدوء واتزان :

– لا مجال لهذا السؤال يا آنسة (منى) ، أنسيت أنه مستشفا كما ؟

تألق خبث مرح فى عينى (منى) ، وهى تقول :

– آه .. حقًّا .. كدت أنسى ذلك .

شعرت (سهام) بالخجل لأول مرة من مرح شقيقتها، وقالت فى صوت خافت :

– سنلتقى مرة أخرى – بإذن الله – يا دكتور (أشرف) .

أدهشتها ابتسامته ، ولهجته ، وهو يقول :

– أتمنى ذلك .

ظلت هذه العبارة الأخيرة تملأ كيانها ومشاعرها ، طوال طريق العودة ، وظلت هى شاردة ساهمة ، وهى تجلس إلى جوار شقيقتها فى المقعد الخلفى للسيارة ، حتى مالت نحوها (منى) ، وهمست فى مرح :

– أهو وسيم جذّاب إلى هذا الحد ؟

التفتت إليها فى دهشة ، وتضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تهتف :

– من تعنين ؟

ابتسمت (منى) فى خبث ، وقالت :

– ذلك الوسيم ذو العينين الخضراوين ، الذى لم يرفع عينيه عنك طوال الوقت .

أدهشها أنها لم تلحظ ذلك ، فغمغمت بمزيج من الخجل واللهفة :

– أفعل حقـًا ؟

رفعت (منى) حاجبيها فى دهشة مصطنعة ، وهى تقول فى مرح :

– أتحاولين خداعى يا شقيقتى العزيزة ؟

همست (سهام) ، وكأنها تخشى أن يسمعهما سائق السيارة :

– أقسم أننى لم ألحظ ذلك .

ضحكت (منى) فى مرح ، وقالت :

– عجباً !!.. لقد كان من الواضح أن كليكما قد جذب انتباه الآخر تمـاماً ، حتى أننى شعرت بالإهمال والخجل .

عقدت (سهام) حاجبيها ، متظاهرة بالصرامة ، وإن لم تنجح فى إخفاء رنة الفرح فى صوتها ، وهى تقول :

– (منى) .. كفى مزاحاً .

عادت (منى) تضحك مرة أخرى فى مرح ، قبل أن تهمس :

– صـدقينى لقد شعرت وكأننى حارس ثقيل ، لخطيبين فى نزهة خلويـّة .

ازداد تخضب وجه (سهام) بحمرة الخجل ، وهى تغمغم فى استنكار واهٍ :

– (منى) ؟!

هزّت (منى) كتفيها ، وقالت فى هدوء :

– ولكننى أعتقد أن انطباعكما الأول لا يكفى ، فلا بد لكما من التعارف أكثر .

أحنت (سهام) رأسها فى خجل ، وغمغمت :

– وكيف يحدث هذا ؟

ابتسمت (منى) فى خبث ، وقالت :

– ربمـا حينما تذهبين إلى المستشفى غداً .

عقدت (سهام) حاجبيها ، وقالت فى اعتراض :

– سيثير هذا دهشة والدنا ، فنحن لم نعتد زيارته فى عمله .

تألقت ابتسامة (منى) فى مرح ، وهى تقول :

– ومن قال إنها زيارة ؟ .. ستذهبين لاستعادة حقيبتى ، لأننى سأكون مشغولة فى المنزل .

حدّقت (سهام) فى وجهها بدهشة ، وهى تتمتم :

– حقيبتك ؟!

أومأت (منى) برأسها إيجاباً ، وقالت فى خبث :

– نعم .. يبدو أننى قد نسيتها هناك .

ثم أردفت :

– بعد أن لاحظت احمرار وجهك خجلا .

ابتسمت (سهام) ، وعانقت شقيقتها بعينيها فى امتنان ، ثم همست وهى تربّت على كتفها فى حرارة :

– شكراً يا (منى) .

واسترخت فى مقعدها وهى تتنهد فى ارتياح وانفعال ، وتحتفل فى أعماق قلبها بحفل افتتاح خاص .. افتتاح قصة حبها ..

* * *

٤ – لقاء ومفاجأة ..

ارتجف قلب (سهام) عندما وقعت عيناها على وجه (أشرف) ، فى اليوم التالى ، وعادت حمرة الخجل تملأ وجهها ، حينما اندفع نحوها متهلل الأسارير ، وصافحها فى حرارة ، وهو يقول :

– يا للمفاجأة السارة !! لم أتوقع رؤيتك ثانية بهذه السرعة .

غمغمت وهى تخفض عينيها :

– لقد نسيت (منى) حقيبتها هنا و ..

قاطعها ، وهو يهتف فى حرارة :

– المهم أننا التقينا ثانية .

ملأت عبارته قلبها بالسعادة ، وارتبكت ، وهى تبحث عما تنطق به ، حتى غمغمت :

– هل والدى هنا ؟

ابتسم وهو يقول :

– نعم ، ولكنه منشغل فى إجراء عملية قيصرية عاجلة .

فوجئت به يلتقط كفها الصغيرة فى راحته الدافئة ، ويقودها فى هدوء إلى حجرة والدها ، وهو يستطرد :

– هل تعلمين أن والدك من أبرع أطباء النساء والتوليد فى مصر كلها ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، وهى تغمغم :

– نعم .. الجميع يقولون ذلك .

شعرت بتهدج صوته ، وهو يتابع فى همس :

– وأنك أجمل فتاة فى العالم أجمع ..

ارتجفت كفها فى راحته ، وخفق قلبها وهى تغمغم فى اعتراض متخاذل :

– دكتور (أشرف) !

تنحنح فى خجل ، وترك كفها ، وهو يستعيد لهجته الرصينة ، قائلا :

– علمت من الدكتور (صبرى) أنك وشقيقتك طالبتان فى كلية آداب القاهرة .

غمغمت :

– نعم .

صمت لحظة ، وهو يفتح باب حجرة والدها ، ويدعوها للدخول ، ثم استطرد :

– من العجيب أنكما لا تتشابهان أبداً ، حتى أنه من العسير على المرء تصور أنكما شقيقتان .

ضحكت فى ارتباك ، وقالت :

– كثيرون يقولون هذا أيضاً .

ابتسم ، وقال فى هدوء ورزانة :

– أنتما متقاربتان فى السن ، أليس كذلك ؟

أجابته فى مرح مصطنع :

– بلى .. تقارب يندر تواجده ، فـ (منى) تكبرنى بسبعة أشهر بالضبط ..

عقد حاجبيه لحظة ، ثم ابتسم وهو يقول :

– لا ريب أنك تمزحين ، فهذا مستحيل .

ضحكت فى مرح ، وقد بدأ حاجز التوتر بينهما يذوب ، وقالت وهى ترفع عينيها إلى عينيه لأول مرة :

– أرأيت كيف أدهشك ذلك ؟.. لقد كان مصدر تندرٍ دائماً بين رفيقاتنا و ...

قاطعها فى هدوء :

ـ مستحيل يا آنسة (سهام) .

تطلعت إليه فى دهشة ، وهى تغمغم :

ـ لماذا ؟.. ألم تر فى حياتك كلها طفلة تولد بعد سبعة أشهر من الحمل ؟

أجابها فى رصانة :

ـ رأيت العديدات ، ولكن هذا يتوقف على الفترة التى يستغرقها الحمل ، وهـذا يعتمد بالضرورة على حدوث الحمل ذاته .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ـ حسناً .. لقد حملت بى أمى بعد ولادتها لـ (منى) مباشرة و ...

قاطعها مرة أخرى :

ـ هذا هو المستحيل يا آنستى .

ثم ابتسم ، وكأنه يكشف دعابتها ، وقال فى هدوء :

ـ الحمل لا يحدث بعد الولادة مباشرة ، فهناك ستة أسابيع تعقب الولادة ، تكون فيها الأم غير مخصبة ،

ولا يمكن خلالها حدوث الحمل ، بأى صورة من الصور .

بدت لها عبارته عجيبة غير مفهومة ، وظلت تحدّق فى وجهه بدهشة ، قبل أن تغمغم :

ـ ماذا تعنى يا (أشرف) ؟

لم تنتبه إلى أنها خاطبته باسمه مجرّداً ، وكأنهما صديقان قديمان ، ولكنه انتبه إلى ذلك ، وشعر بالسعادة تغمر قلبه ، حتى أنه صمت طويلا ، وهو يتأمل ملامحها ، قبل أن يتنهّد ، ويقول فى هدوء :

ـ أعنى أنه من المستحيل أن تكبرك شقيقتك بسبعة أشهر فقط ، فالحد الأدنى لفارق العمر بينكما لا بدّ أن يكون ثمانية أشهر ونصف .

كان أثر العبارة التى ألقاها فى هدوء وثقة ، قويًّا على (سهام) ، فاتسعت عيناها فى ذهول ، وغمغمت فى قلق رهيب :

ـ ألا يمكن أن يحدث هذا أبداً ؟

أجابها فى هدوء :

– أبداً .

ثم أردف ، وهو يعقد حاجبيه :

– إلاّ إذا ..

اندفعت (سهام) بجسدها كله إلى الأمام ، وهى تسأله فى لهفة :

– إلاّ إذا ماذا ؟

تردّد لحظة ، ثم أجاب فى ارتباك :

– إلاّ إذا لم تكونا شقيقتين .

اتسعت عينا (سهام) فى فزع ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها صرخة ملتاعة ، تهتف فى ذعر :

– (أشرف) ؟!

كانت صرخة الدكتور (صبرى) ، الذى وقف على باب حجرته ، ممتقع الوجه ، زائغ البصر ، تلوح اللوعة فى كل خلجة من خلجات وجهه ..

كانت ملامحه المذعورة اعترافاً بصحة كل كلمة نطق بها (أشرف) ، حتى أن (سهام) تراجعت فى ذعر ، وهى تردّد فى ذهول :

– مستحيل .. هذا غير صحيح .. غير صحيح .

وغمغم (أشرف) ، وقد هاله ما فعل :

– يا إلهى !!.. إننى لم أقصد ذلك .

أما الدكتور (صبرى) ، فقد تقدم نحو ابنته ، وقد شحب وجهه ، وهو يقول :

– (سهام) .. ابنتى .

تراجعت أمامه ، وهى تردّد فى ذهول :

– ابنتك ؟!

تمزّق قلبه ، وهو يواصل تقدّمه نحوها ، ويسألها فى إشفاق :

– هل شعرت يوماً بغير ذلك ؟

ردّدت مرة أخرى فى ذهول :

– شعرت ؟!

أحاطها بذراعيه فى لوعة وحنان ، وهو يغمغم :

– ابنتى الحبيبة .

ظلت تحدّق فى وجهه ، وهى تغمغم :

– و (منى) ؟!

هتف فى ألم :

– أنتما ابنتاى .. كلتا كما تحتل جزءًا كبيراً فى قلبى .

نقلت بصرها بينه وبين (أشرف) ، الذى وقف يراقب الموقف فى شحوب ، وقد اعتراه ندم هائل ، وغمغمت فى صوت خافت :

– كلاً .

ثم تحوّلت غمغمتها إلى صراخ مستنكر ، وهى تفلت من بين ذراعى الدكتور (صبرى) ، مكرّرة :

– كلاً .

مدّ الدكتور (صبرى) كفه إليها ، وهو يقول فى ضراعة :

– (سهام) .. ابنتى .

هتفت (سهام) فى توتر بالغ :

– أيّنا ابنتك يا دكتور (صبرى) ؟.. أيّنا تحمل اسمك حقًّا ؟.. أنا أم (منى) ؟

قال فى صوت ضعيف واهن :

– كلتا كما يا بنيتى .

صرخت فى ألم :

– لا .. لا تواصل خداعى .. لقد كشف القدر حقيقة الأمر .

ثم تعلقت بمعطفه الطبىّ ، وهى تصرخ :

– أيّنا ابنتك ؟.. أنا أم (منى) ؟

ترقرقت الدموع فى عينيه ، وهو يغمغم :

– (سهام) .. أرجوك .

تراجعت بعيداً عنه فى ذعر ، ونقلت بصرها بينه وبين (أشرف) فى لوعة ، وقد تحولت رغبتها فى معرفة الجواب إلى خوف هائل ..

خوف من مصير مجهول ..

من حقيقة قد تحطّمها تحطيماً ..

واندفعت فجأة تغادر الحجرة ، وكأنها ترفض سماع الجواب ..

وتركت خلفها قلبين ملتاعين ..

ساد الصمت طويلا فى حجرة الدكتور (صبرى) ،

الذى انهار على مقعده ، ودفن وجهه بين كفيه ، حتى سمع (أشرف) يغمغم فى ارتباك :

– إننى لم أقصد يا دكتور (صبرى) .. لم أقصد أبداً أن ..

قاطعه الدكتور (صبرى) فى ألم :

– أعلم ذلك ياولدى .. أعلم ذلك .

هال (أشرف) مرأى عينى الدكتور (صبرى) المحمرتين الدامعتين ، وهو يرفعهما إليه مستطرداً فى صوت خافت حزين :

– كانت الحقيقة ستتكشف حتماً .

اتسعت عينا (أشرف) ذعراً ، على الرغم من يقينه بالأمر ، وغمغم فى دهشة :

– إذن فهذا حقيقى !.. إحداهما حقًّا ليست ابنتك .

أطرق الدكتور (صبرى) برأسه ، وارتفعت من بين شفتيه همهمة باكية ، فهتف (أشرف) فى توتر وانفعال :

– أيهما يا دكتور (صبرى) ؟.. أيهما ؟

رفع إليه الدكتور (صبرى) عينيه مرة أخرى ، وقال فى حزن :

– ومن يعنيه ذلك يا ولدى ؟

كاد يصرخ أن هذا يعنيه هو ..

يعنى قلبه الذى وقع فى حب (سهام) ..

يعنى المستقبل الذى بات ليلته يحلم به ويتمناه ..

إنه يعنيه .. يعنيه .. يعنيه ..

* * *



٥ – من أنا ..

تحركت (منى) فى حجرتها بقلق ، وهى تتطلع من النافذة بين الحين والآخر ، انتظاراً لعودة (سهام) .

كانت تشعر بالسعادة ؛ لأن الحب قد وجد طريقه إلى قلب شقيقتها ، وكانت تتلهف لعودتها ؛ لتعرف منها كيف كان لقاؤها الثانى مع من أحبت ..

وأخيراً رأت (سهام) تعبر باب الفيلا . ولكنها لم تكن سعيدة ..

لم تكن هناك ذرّة واحدة من السعادة فى ملامحها ، بل كان الحزن يغطى وجهها كله ، ويحيط به ويملؤه ..

أسرعت (منى) تستقبل شقيقتها فى قلق ، وسألتها فى لهفة :

– ماذا حدث ؟.. هل كشفت أنه يحب أخرى ؟

تفجرت الدموع فى عينى (سهام) ، وألقت نفسها بين ذراعى (منى) ، التى ارتجفت قلقاً ، وهى تضم شقيقتها إلى صدرها فى حنان ، وتهتف فى توتر :

– ماذا حدث يا (سهام) ؟.. ماذا حدث بالله عليك ؟

رفعت (سهام) عينيها إلى شقيقتها فى حزن ، دون أن تجد ما يمكنها قوله ..

ولأول مرة فى حياتها ، وجدت نفسها تبحث فى ملامح (منى) عما يشبه الدكتور (صبرى) ، وزوجته ..

توقفت عند وجه (منى) المستطيل ، وعينيها العسليتين ، وشعرها الكستنائى ، ولكنها سرعان ما عادت تتذكر شعرها هى الأسود ، وشفتيها الرقيقتين ، فصرخ السؤال مرة أخرى فى رأسها :

– أيّتنا ابنة (صبرى مختار) ؟

عادت (منى) تسألها بمزيد من القلق والتوتر :

– (سهام) .. ماذا حدث بالله عليك ؟

غمغمت (سهام) وهى تبكى :

– لا شىء يا (منى) .. لا شىء .

لم تصدق (منى) عبارتها بالطبع ، فغمغمت فى قلق ، وهى تحتضن شقيقتها فى حنان :

– حسناً .. دعينا نصعد إلى حجرتى ، لنتحدث فى هدوء .

استسلمت لها (سهام) ، وهى تقودها إلى حجرتها ، وهناك جلست على طرف الفراش ، ودموعها تبلل وجهها ، ووقفت (منى) إلى جوار النافذة صامتة ، تتأملها فى إشفاق ، ثم غمغمت :

– والآن ماذا حدث ؟

حارت (سهام) فى البحث عن جواب يرضى فضول شقيقتها وقلقها ..

كان جزء من نفسها يريد الإفصاح عن السر ، الذى ينوء به كاهلها ، لينزاح عنها عبء الاحتفاظ به ..

أما الجزء الآخر منها ، فكان يخشى الإفصاح بالسر الرهيب ..

ربما لأنها لم تكن تعلم بعد أيّتهما ابنة (صبرى مختار) الحقيقية ..

أو ربما لأنها كانت تحب (منى) حبًّا قويًّا ، جعلها تخشى على مشاعرها الرقيقة من سماع هذا الأمر المفزع .

ربما هذا أو ذاك ، المهم أنها قررت عدم الإفصاح عن حقيقة الأمر ، واكتفت بإبعاد عينيها عن عينى شقيقتها ، وهى تقول :

– إنه لم يشعر بى على الإطلاق .

عقدت (منى) حاجبيها ، وهى تغمغم فى شك :

– (أشرف) لم يشعر بك ؟!

كانت كذبة غير متقنة ، ولكن (سهام) لم تجد ما تقوله غيرها ، فهزّت (منى) رأسها فى تكذيب واضح ، وعقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تشيح بوجهها نحو النافذة ، ولكن شيئاً ما جذب انتباهها فى حدّة ، فازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تحدّق عبر النافذة ، ثم استدارت نحو شقيقتها ، وقالت فى صرامة :

– (سهام) ، الأمر أكبر مما قلت .. أكبر بكثير .

أطرقت (سهام) برأسها ، وغمغمت فى انكسار :

– ما الذى يجعلك تظنين ذلك ؟

أجابتها (منى) بنفس الصرامة :

– لقد عاد أبى الآن ، وهو يبدو متوتراً ، وهى

المرة الأولى التى يعود فيها إلى الفيلا فى مثل هـذا الوقت المبكّـر .

شحب وجه (سهام) ، واضطرب قلبهـا ، وهى تهتف فى مزيج من الدهشة والخوف :

– أبى ؟!.. عاد ؟!

لم تكن دهشة الفتاتين بأقل من دهشة والدتهمـا ، التى حدّقت فى وجه زوجها ، وهى تغمغم فى قلق :

– ماذا حدث يا (صبرى) ؟.. هل تشعر بأى نوع من التعب ؟

تضاعفت دهشتها حينما جذبها إلى حجرة مكتبه ، وأغلق الباب خلفه فى إحكام ، فهتفت به ، وقد وصل قلقها إلى ذروته :

– ماذا حدث يا (صبرى) ؟

أجابها بصوت يقطر مرارة وحزناً :

– لقد عرفت (سهام) الحقيقة .

شحب وجهها ، وتهاوت فوق أقرب مقعـد ، وهى تغمغم :

– يا إلهى !!

ثم رفعت إليه عينين دامعتين ، وسألته فى صوت مرتجف :

– كيف ؟!

شرح لها الأمر فى صوت مرتجف حزين، وأصغت إليه هى ودموعها تبلل وجهها ، حتى انتهى من حديثه، فجففت دموعها ، وسألته فى اهتمام :

– إذن فهى لا تعرف الحقيقة كلها .

هزّ رأسه نفياً ، وقال :

– كلاّ، ولكن ما عرفته يكفى لتشتعل نيران الشك فى قلبها دوماً .

غمغمت الأم فى صوت معذَّب :

– الشك ؟!

أومأ برأسه إيجاباً ، وقال :

– هذا الشك يعاون على حفظ السر .

سألته فى دهشة :

– كيف ؟

ازدرد لعابه فى صعوبة ، ثم قال :

- إنها ليست واثقة من الحقيقة ، ولو أن معرفتى بها كافية ، فهى لن تصارح شقيقتها أبداً .

عادت دموع الأم تملأ وجهها ، وهى تغمغم :

- إننى أحب كلتيهما من أعماق قلبى .

أمسك الدكتور (صبرى) كتفيها ، وحدّق فى عينيها ، وهو يقول فى حنان :

- هذا شعورى أيضاً ، ولكننا أقسمنا على حفظ السرّ ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسها موافقة ، فمدّ يده يجفف دموعها ، وأجبر شفتيه على الابتسام ، وهو يقول فى حنان دافق :

- والآن أريد منك أن تتحدثى إليها .

هتفت فى خوف ودهشة :

- أنا ؟

أومأ برأسه إيجاباً ، وهو يقول :

- إنها لن تستمع إلىّ ، ولكنها قد تستمع إليك .

لم تكن المهمة هيّنة على مشاعر الأم ..

كانت أشقّ مواجهة بينها وبين ابنتها ..

كان وجهها شاحباً ، والكلمات ترتجف على شفتيها ، حينما ذهبت إلى حجرة (منى) ، وقالت لـ (سهام) أمام شقيقتها :

- أريد أن أتحدث إليك وحدنا ، فى حجرتى يا (سهام) .

شعرت أن نظرات (منى) تخترق قلبها ، وتشعل فيه النيران ، فأسرعت تغادر الحجرة إلى حجرتها ، وجلست ترتجف على طرف فراشها ، حتى لحقت بها (سهام) ، فقالت وهى تشير إلى باب الحجرة :

- أغلقى الباب يا (سهام) .

أغلقت (سهام) باب الحجرة فى إحكام ، وجلست مطرقة الرأس إلى جوار والدتها ، دون أن تجرؤ إحداهما على التطلّع فى وجه الأخرى ، وخيّم الصمت على مجلسهما لحظات ، قبل أن تقول الأم فى صوت مرتجف :

- لقد أخبرنى والدك بكلّ شىء .

أجابتها (سهام) فى صوت خافت :

– أهو والدى حقًا ؟

لم تجبها والدتها فورًا ..

ظلت صامتة طويلاً ، ثم أحاطت كتفها بذراعها، وقالت فى حنان حزين :

– هل شعرت يوماً أنه ليس كذلك يا بنيتى ؟

دفعت (سهام) ذراع أمها عن كتفها فى قسوة ، وهى تهتف :

– ليس المهم ما أشعر به ، المهم هو من أنا ؟

سالت دموع الأم غزيرة ، وهو تقول .

– أنت ابنتى يا (سهام) .

هتفت (سهام) :

– و (منى) ؟

أجابتها الأم فى صوت كالبكاء :

– كلتا كما ابنتى .

بدأ بينهما حديث عنيف ، حينما هتفت (سهام) :

– هذا كذب .

– هذا ما أشعر به أنا ووالدك .

– وما أدرانى أنكما حقًا والدىّ ؟

– ولماذا يشغلك هذا الأمر ؟

– لا بدّ أن أعرف .

– لماذا ؟.. هل قصَّرنا يوماً فى منحكما الحنان والحب ؟

– ليس الأمر مشكلة حب وحنان .

– مشكلة ماذا إذن ؟

– مشكلة هويَّة .. أريد أن أعرف من أنا ؟

– الأسرة والمجتمع يعلمون أنك ابنة الدكتور (صبرى مختار) .

– إنهم مخدوعون .

– وربما كانوا على حق .

– لماذا تصرّان – أنت ووالدى – على إحاطتى بالحيرة والشك ؟

– إننا نحاول الحفاظ على ترابط الأسرة يا بنيتى .

– أخبرينى إذن من أنا ؟.. أو من (منى) ؟

– كلتا كما ابنتانا .

توقف الحديث عند هذا الحد ، ولوّحت (سهام) بكفها فى غضب ، وهى تقول :

ـ لا فائدة إذن .

نهضت الأم فى بطء، واحتوت ابنتها بين ذراعيها، وقالت وهى تبكى :

ـ لماذا تفعلين بنا ذلك يا بنيتى ؟.. هل تعاقبيننا على كل ما منحناك من رعاية وحب وحنان ؟.. هل تتناسين كل هذا ، لمجرد أنك تشككت فى نسبك إلينا ؟

تدفق حنان الأم إلى عروق الابنة ، وامتزجت دموعهما ، حينما قالت (سهام) :

ـ أريد أن أعرف.

احتضنتها الأم فى حنان ، وهى تقول :

ـ المعرفة لا تفيد دائماً يا بنيتى ، بل إنها كثيراً ما تضر ، فدعينا نترك مركب الحياة يسير الهوينى ، دون أن نعوق تقدُّمه ، ولننس كل ما حدث اليوم ، فلعل هذا يعيد الأمور إلى نصابها .

كان ما تطلبه الأم مستحيلا ، يخالف الطبيعة البشرية تماماً، إلا أن (سهام) أومأت برأسها موافقة، وغمغمت :

ـ نعم يا أماه .. أعدك بذلك .

ثم أخفت وجهها فى صدر أمها ، وانفجرت بالبكاء ، وفى أعماقها ظل السؤال الحائر يتردد قويًّا عنيفاً :

ـ من أنا ؟

* * *



٦ - الحيرة ..

عاد (أشرف) إلى منزله ، وهو يعانى مزيجاً من المشاعر القوية العنيفة ..

كان يشعر بالندم على ما تفوّه به ، وبالحزن من أثر الحقيقة التى علمها مصادفة ، وبالقلق والحيرة والتخبط ..

شارك أسرته مائدة العشاء صامتاً شارداً ، وازدرد بضع لقيمات صغيرة فى صعوبة ، ثم أسرع إلى حجرته ، وأحكم إغلاقها خلفه ، وارتدى منامته على عجل ، واستلقى فوق فراشه ، يفكر فيما حدث اليوم فى حجرة الدكتور (صبرى) ..

شعر فجأة بهول ما اقترفه ، فارتعدت فرائصه ، وجفّ حلقه فى ألم ..

استبانت له الحقيقة مؤلمة مذهلة ..

لقد حطم بكلمات قلائل أمن أسرة كاملة ، وتماسكها ، وحبها ..

تضاعف شعور الندم والحزن فى أعماقه ، حتى عضّ على شفتيه فى قوّة ، فأدماهما ..

ومسح الدماء عن شفتيه فى شرود ، وهو يتذكر ملامح (سهام) حينما أخبرها بحقيقة الأمر دون أن يدرى.

(سهام) الجميلة الرقيقة ، التى غزت قلبه منذ أول لحظة وقعت عيناه عليها فيها ..

(سهام) الوديعة الجذّابة ..

تذكر فى هذه اللحظة كيف بدت صورة مجسمة للفزع والألم والحزن ، وهى تواجه والدها ، بعد أن تكشفت الحقيقة أمام عينيها ..

قاده التفكير إلى نقطة أخرى ، بحكم اهتمامه العاطفى بـ (سهام) ..

بدأ يتساءل : أيهما ابنة الدكتور (صبرى) حقًّا ؟.. (سهام) أم (منى) ؟

بدأ عقله الحائر يبحث عن الجواب ، بأسلوب منظم عقلانى ، كعادته فى حل كل الأمور المعقدة ، التى تواجهه فى حياته ، وبدأ بحثه بمراجعة ملامح

الفتاتين فى ذاكرته ، ولكن هذا زاد من حيرته ، فقد بدت له كلتاهما متقاربة ومختلفة فى آن واحد عن ملامح الأبوين ، وهذا أخذ يبحث عن تفسير آخر يروق له .

لم يكن عادلاً فى بحثه فى الواقع ، فقد كان يميل إلى جعل (سهام) هى الابنة الحقة لأستاذه ..

ومن هذا المنطلق توصّل عقله إلى تفسيرات كثيرة ، ولكنه كان يرفضها واحداً بعد الآخر ، حتى أعياه البحث ، فنهض من فراشه ، وأخذ يسير فى أرجاء حجرته متوتراً حانقاً ، حتى توقف بغتة ، ولوّح بكفه فى الهواء ، وقال وهو يحدث نفسه فى قسوة :

— ولماذا تهتم كل هذا الاهتمام بنسبها ؟ .. أنت تحبها ، وهذا يكفى .

فجّرت العبارة فى أعماقه سؤالا جديداً ، ودار بينه وبين نفسه حوار ساخط أملاه قلقه ، وصاغته حيرته :

— هل تحبها حقًّا ؟

— لا شك لدىّ فى ذلك .

— وما دليلك على وجود هذا الحب ؟

— قلبى الذى يختلج بين ضلوعى حينما أراها .

— ولكنك لم ترها إلا مرتين فحسب .

— لقد أحببتها منذ المرة الأولى .

— وهل يبدو لك هذا منطقيًّا ؟

— الحب لا يعترف بالزمن .

— هل تصدّق هذا ؟

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لقد جذبك جمالها فحسب ، وحرّكت رقتها مشاعرك ، ولكنك لا تحبها .

— لقد رأيت عشرات الجميلات ، ومئات الرقيقات ، ولن يخدعنى قلبى بشأنها .

— ارجع إلى منطقك .. الحب لا يأتى هكذا بغتة .

— منطقى نفسه يقول : إن الحب لا يخضع للقواعد .

— لماذا يشغلك أمر نسبها إذن ؟

توقف الحديث بينه وبين نفسه عند هذه النقطة ،

وتحوّل إلى صوت مسموع ، خرج من بين شفتيه ساخطاً ، وهو يغمغم :

— نعم .. لماذا يشغلنى نسبها ؟

وعاد يستلقى فوق فراشه صامتاً ، يحدّق فى سقف حجرته فى شرود ، وقد أراح رأسه فوق كفّيه المضمومتين ، وظل مفتوح العينين حتى أشرق الصباح .

لم يكن وحده الذى قضى ليلته مسهّداً ..

أسرة الدكتور (صبرى) كلها شاركته أرَقَه وحيرته ..

(منى) لم يغمض لها جفن طيلة الليل ، وهى تقلّب الأمر على كل الوجوه ، محاولة التوصُّل إلى سرّ ذلك الحزن ، الذى شمل أسرتها طيلة اليوم ، وخاصّة حول مائدة العشاء ، حيث لاذ الجميع بالصمت ، ولم تنطلق كلمة مرحة واحدة طوال الوقت ، بعكس المألوف فى الأسرة ..

كانت تشعر بالقلق والحيرة ، والغضب ..

كان مبعث غضبها أنها كانت الفرد الوحيد فى

الأسرة ، الذى لا يدرى شيئاً عمّا يحدث ، ولكنها كانت واثقة من أن الأمر يتعلق بـ (سهام) ..

(سهام) أيضاً قضت ليلتها أرقة مسهّدة ..

نشب فى أعماقها صراع قوى عنيف ، وهى تحاول أن توازن ما بين ارتباطها القوى بأسرتها ، وخوفها من ألاّ تكون واحدة من تلك الأسرة أصلا ..

تذكّرت حنان والدها ووالدتها الغامر ، منذ وعت عيناها الدنيا ، وأشرق عقلها للحياة ، وبدأ عقلها وتفكيرها يأخذان منعطفاً جديداً ..

بدأ إحساسها بالقهر والحزن والألم يتضاءل ، وحل محله إحساس قوى بالحب والعرفان بالجميل ..

شعرت بمزيد من الحنان والحب نحو أبويها ، اللذين حرَصا طيلة هذه السنوات على منحها وشقيقتها كل ما لديهما من عطف وحنان ورعاية ..

ومع مرور الوقت ، لم يعد يعنيها كثيراً ما إذا كانت ابنتهما أم لا ..

لم يبد لها أن ذلك سيغير الأمور كثيراً ..

ولكن فضولها كان يشتعل فى قوة وحرارة ..
كانت تريد أن تصل إلى الحقيقة ....
أن تعرف ....
وكان هذا مصدر حيرتها ....
وشاركها حيرتها هذه والدها ووالدتها أيضاً ..
لم يستطع أيهما الاستسلام للنوم ، وإن ظل كلاهما صامتاً ، غارقاً فى لجة أفكاره ....
ودون أن يتبادلا كلمة واحدة استقر رأيهما على ضرورة الاحتفاظ بالسر ....
على الأقل بالنسبة للفتاتين ....
ومنعهما ذلك القرار من النوم حتى الصباح ....
وفى الصباح لم يجتمع أى من أفراد الأسرة حول مائدة الإفطـار ، مما أثار فى نفس الخادمة (شوقية) حيرة جديدة ، تضاعفت فى شدة ، عندما تركتها الأم تعد الطعام ، دون أن تتدخل لأول مرة فى طهيه ....
وفى تمام الساعة العاشرة صباحاً ، تبدّلت الأمور على نحو عجيب ...

مع دقات العاشرة ، ارتفع رنين جرس الباب ، فأسرعت (شوقية) تفتحه ، ووقفت لحظة تتطلع إلى الزائر فى دهشة ..
شعرت فى البداية برجفة تسرى فى جسدها ، وهى تحدّق فى عينيه الخضراوين ، اللتين نفـذتا إلى أعماقها فى قوة ..
أو هكذا خيّل لها ..
مضت لحظة من الصمت ، وهى تحدّق فى عينى الزائر ، قبل أن يقول فى هدوء :
– صباح الخير .. هل يمكننى مقابلة الآنسة (سهام) ؟
كان صوته رقيقاً ، هادئاً ، مما أجبر (شوقية) على منحه ابتسامة وُدّ ، وهى تسأله فى احترام :
– هلاّ تفضّلت بذكر اسمك ؟
أجابها فى هدوء ، وهو يمنحها ابتسامة مماثلة :
– (أشرف) .. الدكتور (أشرف عبد الهادى) .
قادته (شوقية) إلى حجرة الجلوس ، وأسرعت

توقظ (سهام) ، أو بمعنى أدق تخرجها من فراشها ، الذى ظلت ترقد فيه حتى الآن ...

ولم تكن دهشة (سهام) بأقل من حيرتها ، وهى تهبط لاستقبال (أشرف) ، الذى استقبلها بابتسامته الهادئة ، وتبادل معها بعض عبارات المجاملة ، قبل أن يتنحنح ، ويقول فى بطء :

- لقد أتيت من أجلك يا (سهام) .. من أجل أمر يخصّنا معاً .

اختلج قلبها بين ضلوعها ، وهى تغمغم :

- أىّ أمر هذا ؟

بدا التردُّد والارتباك فى ملامحه لحظة ، ثم استعاد رزانته وهدوءه بسرعة ، وهو يقول :

- هل تقبليننى زوجاً ؟

ارتجف جسد (سهام) كله مع سؤاله ....

ارتجفت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها .. من أطراف جلدها حتى أعمق أحشائها ..

وتخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وخرجت

الكلمات من بين شفتيها مرتجفة ، خافتة ، وهى تقول :

- كان من المفروض أن توجه سؤالك هذا إلى الدكتور (صبرى) .

أجابها فى اهتمام :

- أردت معرفة رأيك أولاً .

كادت تهتف بالموافقة فى سعادة ، لولا خجلها .. ولولا قلقٌ قوىٌّ بعثه سؤاله من أعماقها ..

كانت تتصوَّر بعد سُهاد أمس أنها قادرة على تجاهل أمر نسبها تماماً ، ولكن رغبة (أشرف) فى الزواج منها عاد يفجّر المشكلة كلها مرة ثانية فى أعماقها ..

وجدت نفسها تسأله بغتة ، وهى تطرق برأسها فى خجل :

- وهل أنت واثق أننى ابنة الدكتور (صبرى مختار) ؟

أجابها فى حزم :

- هذا لا يعنينى .

هتفت فى حدة :

– ولكنه يعنينى أنا .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم قال (أشرف) :

– لقد اخترتك أنت يا (سهام) ، وكل ما أرجوه موافقتك على الزواج منى ، ولست أحفل كثيراً بانتمائك إلى الدكتور (صبرى) من عدمه .

كان حديثه يسعدها ويذكى نيران حبها له ، ولكنها كانت تخشى أن يُقيم ذلك السرّ الذى تجهـــله حاجزاً بينهما ، يمنعها من منحه السعادة أو الاستقرار ....

ظلت صامتة لحظات ، ثم غمغمت :

– إننى لا أرفضك يا (أشرف) ، ولكننى أريد أن أعرف أولاً من أنا ؟

سألها فى لهجة بدت لها أقرب إلى التوسُّل :

– لمـــاذا ؟

ترقرقت الدموع فى عينيها ، وهى تقول فى همس حزين :

– أليس هذا من حقّى ؟

لم يجد لديه ما يمكنه من إجابة سؤالها ، وبدت له دموعها كحمم تحرق قلبه ، وخناجر تمزّق نياطه ، فمدّ يده فى هدوء ، وأحاط كفها الرقيقة براحته ، وهو يقول فى حنان :

– هل يمكننى معاونتك على تجاوز هذه الأزمة ؟

ارتجفت للمسته ، ورفعت عينيها إليه فى ضراعة ، وهى تقول فى لهفة :

– نعم .. أرجوك .

بدا متردداً لحظة ، ثم أعاد يده إلى جواره ، ونهض وهو يقول :

– حسناً يا (سهام) .. سأفعل كل ما بوسعى لمعاونتك ، وسأؤجل مطلبى هذا لما بعد ذلك .

غمغمت فى أسف :

– (أشرف) .. إننى ..

قاطعها فى حزم :

– لا عليك يا (سهام) .. حتى لو وافقت على

الزواج منى الآن ، فلن يبعث هذا فى قلبى الاطمئنان ، سأنتظر حتى تنتهى حيرتك .

تابعته بعينيها وهو ينصرف ، وقاومت طويلا حتى لا تعدو خلفه ، وتتعلق به ..

كان بأسلوبه المتحضر هذا قد محا من قلبها كل ذرة شك فى حبه لها ..

فى هذه اللحظة بالذات كان قلبها يعترف بحبه ، ويهتف مع كل نبضة من نبضاته باسمه .

لقد انتهت حيرتها فى هذا الشأن ..

* * *



٧ - البحث ..

رفع الدكتور (صبرى) عينيه ، يتطلع فى دهشة إلى (أشرف) ، قبل أن يقول :

- تطلب يد ابنتى (سهام) ؟ !

أجابه (أشرف) فى احترام :

- يشرّفنى ذلك يا سيّدى .

داعب الدكتور (صبرى) جبهته فى توتر ، ثم قال :

- هل تظن أن الوقت مناسب لذلك يا(أشرف) ؟

أجابه (أشرف) فى هدوء :

- نعم يا سيّدى .

استند الدكتور (صبرى) إلى ظهر مقعده ، وتأمّل وجه (أشرف) طويلا ، قبل أن يقول :

- ألمطلبك هذا علاقة بما سمعته أمس ؟

تردّد (أشرف) لحظة ، ثم قال :

- إلى حدّ مّا يا سيدى .

مطّ الدكتور (صبرى) شفتيه ، وغمغم فى أسى :

- هذا ما كنت أخشاه .

ثم رفع عينيه إلى (أشرف) ، واستطرد فى لهجة مشفقة حنون :

- الشفقة وحدها لا تكفى لصنع زواج ناجح يابنىّ .

بدا وكأن (أشرف) قد بوغت بالعبارة ، وهو يهتف فى دهشة :

- الشفقة ؟ ! .. لم يخطر هذا ببالى مطلقاً يا سيدى .. إننى أحب (سهام) حقًّا .

انتقلت الدهشة إلى الدكتور (صبرى)، وهويقول :

- تحبُّها ؟ !.. إنك لم تلتق بها إلا أمس الأول يا بنى ، والحب لا ينشأ بمثل هذه السرعة .

ابتسم (أشرف) فى خجل ، وهو يقول :

- فلنقل إننى قضيت عمرى كله أبحث عن فتاة مثلها .

عقد الدكتور (صبرى) حاجبيه ، وبدا وكأنه لا يستطيع استساغة هذا المنطق ، ولكنه لم يلبث أن هزّ كتفيه ، وكأنه يترك المنطق لصاحبه ، وقال :

- لابدّ على الأقل أن أعرف رأيها و ....

قاطعه (أشرف) فى عجلة :

- إنها موافقة يا سيّدى .

تطلع إليه الدكتور (صبرى) فى دهشة ، ثم ابتسم فى حنان ، وهو يقول :

- إذن فأنتما متفقان ، وأنا آخر من يعلم .

غمغم (أشرف) فى خجل :

- لقد أردت معرفة رأيها ، قبل مفاتحتك بالأمر يا سيّدى .

اتسعت ابتسامة الدكتور (صبرى) ، وهو يقول:

- ووافقت ؟!

تردّد (أشرف) لحظة ، ثم أجاب :

- موافقة مشروطة يا سيّدى .

عاد الدكتور (صبرى) يعقد حاجبيه ، وهو يقول فى قلق :

- ماذا تعنى ؟

قصّ عليه (أشرف) الحوار ، الذى دار بينه وبين

(سهام) منذ لحظات ، وأصغى إليه الدكتور (صبرى) فى اهتمام مشوب بالقلق ، حتى انتهى (أشرف) ، فهتف الدكتور (صبرى) فى توتر :

– حذار أن تفعل يا بنىّ.

جاء دور (أشرف) ليعقد حاجبيه ، وهو يقول :

– أفعل ماذا يا سيِّدى ؟

هتف الدكتور (صبرى) ، وهو يتشبَّث بحافة مكتبه فى عصبية :

– حذار أن تعاونها على كشف حقيقة الأمر .

سأله (أشرف) فجأة فى حدّة :

– لماذا يقلقك الأمر إلى هذا الحدّ يا سيدى ؟

صاح الدكتور (صبرى) ، وقد انتقلت الحِدّة إلى صوته أيضاً :

– لأنه قد يعنى انهيار أسرة كاملة .

– ولكن (سهام) عرفت حقيقة الأمر بالفعل ، ولن يرتاح قلبها أبداً إلا إذا عرفتها كاملة .

– لقد أقسمنا – زوجتى وأنا – على حفظ السرّ مدى الحياة .

– ولكن القدر أراد له أن يُفشىَ ، فلِمَ تعاندان القدر ؟

– صدقنى يا بنى .. هذا أفضل .

– هل يعنى ذلك أن (سهام) ليست ابنتك ؟

صمت الدكتور (صبرى) عند هذه النقطة ، والتمع الدمع فى عينيه ، وهو يقول :

– هل يعوق هذا طلبَك الزواج منها ؟

هتف (أشرف) فى صدق :

– لا ، يا سيِّدى .

ابتسم الدكتور (صبرى) ، وقال وهو يتنهَّد فى ارتياح :

– إذن دعنا نترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى .

عقد (أشرف) حاجبيه ، وغمغم :

– ولكن ..

قاطعه الدكتور (صبرى) فى مزيج من اللهفة والقلق :

– ولكن ماذا ؟

تردّد (أشرف) مرة أخرى ، وهو يقول فى صوت خافت :

– ولكننى وعدت (سهام) .

ساد الصمت بينهما لحظات ، ثم نهض الدكتور (صبرى) من خلف مكتبه ، وانتقل إلى حيث يقف (أشرف) ، وربّت على كتفه فى حنان ، وهمس :

– لقد وعدتها أن تعاونها يا (أشرف) ، تعاونها على تجاوز أزمتها ، ولن يتأتّى هذا بإصرارك على البحث عن الحقيقة .

انبعث قلق مفاجىء فى أعماق (أشرف) ....

اشتعل فضوله فجأة فى عنف ، أمام إصرار الدكتور (صبرى) على إخفاء الأمر ....

أصبح هو الآخر شغوفاً بأن يعرف ....

صحيح أن رغبته فى الزواج من (سهام) لم تكن تخضع لنتيجة معرفته بالسر ، ولكن رغبته فى معرفة الحقيقة باتت قوية آسرة ..

وجد نفسه – بلا وَعْى – يسأل الدكتور (صبرى) فى برود :

– هل تظن ذلك يا سيدى ؟

أجابه الدكتور (صبرى) فى حزن وهو يربّت على كتفه مرة أخرى :

– نعم يا ولدى .

ولكن (أشرف) لم يعد باستطاعته إخماد فضوله ، فعاد يسأل الدكتور (صبرى) فى إصرار :

– يمكنك أن تذكر لى أنا الحقيقة على الأقل يا سيدى .

ابتسم الدكتور (صبرى) ابتسامة ، حملت كل ما فى قلبه من حزن ، وهو يقول فى خفوت :

– ليس الآن يا ولدى .. ربما يوماً مّا .. بعد أن تستقرّ الأمور .

أومأ (أشرف) برأسه فى موافقة صامتة ، ولكن أعماقه كانت تنادى بالعكس ..

كانت تنادى بضرورة البحث .... البحث عن الحقيقة ...

* * *

٨ ـ الاتفاق ..

شعرت (سهام) بالدهشة ، حينما رأت والدها يدخل حجرتها فى هدوء ، على الرغم من أنها ليست المرة الأولى ، التى يشاركها والدها الحديث فى حجرتها ، ولكن مبعث دهشتها كان ابتسامته التى تجمع بين الحنان والحزن ، والتى مست شغاف قلبها ، وجعلتها تسرع إليه هاتفة :

ـ مرحباً يا والدى .. كم تسعدنى رؤيتك ؟

ربّت والدها على كتفها فى حنان، وقال فى حب:

ـ إنك ترفضين مغادرة حجرتك منذ الصباح ، فقررت أنا زيارتك فيها .

أطرقت برأسها فى خجل ، وهى تغمغم :

ـ كنت أحتاج إلى الجلوس وحدى لأفكر فى ....

عاد يربّت على كتفها ، وكأنما يدعوها لبتر حديثها ، ثم جلس على طرف فراشها ، وابتسم وهو يقول :

ـ لقد تحدث إلىّ الدكتور (أشرف) اليوم بشأنك .

ساورها القلق وهى تسأله :

ـ بشأنى أنا .

أومأ برأسه إيجاباً ، وقال فى حنان :

ـ إنه يطلب الزواج منك .

اتسعت عيناها فى دهشة ، وتدفقت فى عروقها دماء الغضب ..

لماذا طلب (أشرف) يدها من والدها ، على الرغم من اتفاقهما على تأجيل ذلك هذا الصباح ؟ ..

ما الذى دفعه لتغيير الاتفاق على هذا النحو المباغت ؟ ..

ظلت تحدّق فى وجه والدها بدهشة ، وعينين واسعتين متسعتين ، حتى أنه سألها فى قلق :

ـ ماذا بك يا (سهام) ؟ .. أترفضين عرضه ؟

هزت رأسها نفياً فى بطء ، وغمغمت :

ـ لا ، يا أبتاه ، ولكنه كان مفاجئاً .

عقد حاجبيه ، وهو يغمغم فى حيرة :

- ولكن ....

بتر عبارته قبل آن يقول إن (أشرف) أخبره بموافقتها ، وقال :

- ربما كان عليه أن يمهد للأمر مسبقاً ، ولكنه لم يفعل ، فما رأيك فى عرضه ؟

تردّدت (سهام) لحظة ، وهى تحاول البحث عن تفسير لهذا التغيير المفاجىء ..

كانت ثقتها بـ (أشرف) تؤكد لها أن لديه مبرّرًا قويًا ، دفعه إلى تغيير اتفاقهما ..

وكان حبها له يدفعها لتصديق وجود هذا المبرّر ..

طال صمتها ، وهى تطرق برأسها أرضاً ، حتى كرّر والدها سؤاله فى قلق :

- ما رأيك يا (سهام) ؟

تصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، وغمغمت فى خفوت :

- ما رأيك أنت يا أبى ؟

تنهد الوالد فى ارتياح ، وقال :

- (أشرف) شابٌ ممتاز ، من أسرة طيبة ، وهو ناجح وطموح ، وسيكون - بإذن الله - زوجاً رائعاً .

شعرت بفرح يغمر قلبها ، على الرغم من حيرتها ، وغمغمت :

- حسناً يا والدى ، ما دمت ترى ذلك .

تهللت أساريره ، ونهض يضمها إلى صدره فى رفق وحنان ، وهو يقول :

- ما أسعد قلبى يا بنيتى ! ! كم كنت أحلم باليوم الذى أرى فيه ابنتى فى ثوب عرسها ! !

ابنته ؟! ! ..

أعادت إليها الكلمة كل قلقها ، وحيرتها ، ورغبتها فى معرفة الحقيقة ..

أزالت من قلبها كل فرحتها بالزواج من (أشرف)..

عاد السؤال البغيض يلحُّ عليها ويدور فى رأسها قويًا عنيفاً ..

هل هى حقًا ابنته ؟ ..

هل تحمل اسمه عن حقّ ؟ ..

سيطر هذا التساؤل على كيانها ، فقالت فى صرامة :

— ولكننى أريد مقابلة (أشرف) أولا .

شعر الدكتور (صبرى) بالقلق والحيرة لمطلبها ، ولكنه أجاب فى هدوء :

— لا بأس يا بنيتى .. إنه مطلب منطقى .

— لماذا فاتحت والدى فى أمر زواجنا ؟ .

كان هذا هو السؤال الذى وجهته (سهام) لـ (أشرف) فى غضب ، فوْر رؤيتها له فى مستشفى والدها الخاص ، فى الصباح التالى ..

كانت لهجتها تشف عن غضبها وحنقها ، إلا أنه ابتسم فى هدوء ، وهو يقول :

— ألا تقولين صباح الخير أولا ؟

هتفت فى مزيد من الحنق :

— ليس قبل أن أقتنع بمبرّرك أولا .

عقد ساعديه أمام صدره ، واتسعت ابتسامته وهو يقول :

— ألا تظنين أن هـذا هو الأسلوب المباشر

الصحيح ، لطلب الزواج من آنسة مهذّبة مثلك ؟

صاحت فى غضب :

— ولكننا اتفقنا على ....

قاطعها فى هدوء :

— معذرة يا (سهام) .. لقد اتفقنا على تأجيل زواجنا ، لا خطبتنا .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حنق :

— لا فارق .

ابتسم وهو يقول :

— بل هناك فارق كبير يا حبيبتى .

أرجفتها كلمته الأخيرة ، وأيقظت فى قلبها كل الحنان والحب ، وفجّرت فى أعماقها ينابيع العشق ، فلان صوتها ، ورقّت ملامحها ، وهى تهمس :

— أى فارق هذا ؟

مدّ كفيه فى هدوء ، وأراحهما على كتفيها فى رِقّة ، وهو يهمس فى صوت مشوب بالعاطفة :

— الفارق هو أننى سأكون خطيبك يا (سهام) .

دفء لذيذ ذلك الذى سرى من موضع كفيه إلى جسدها كله ....

خدر رائع أراح قلبها ، وبعث النشوة فى جسدها ، فوجدت نفسها تصغى إليه بكل كيانها ، وهو يستطرد فى هدوء :

– أنت تريدين معاونتى للتوصُّل إلى الحقيقة ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسها إيجاباً فى صمت ، فتابع فى هدوء :

– سيستتبع هذا أن نلتقى كثيراً ، ونناقش معاً بعض النقاط ، وسيصبح هذا أكثر سهولة لو أننا خطيبان ، أما لو لم نكن كذلك فستثير لقاءاتنا الأقاويل .

وتدفَّق الحنان من عينيه ، وهو يردف فى همس :

– وأنا رجل شرقىّ ، لا أحب أن تتناثر الأقاويل حول زوجتى المقبلة .

أنستها رقته كل شىء ، ومحا حنانه كل غضب ، فتخضَّب وجهها بحمرة الخجل ، وأطرقت برأسها ، وهى تغمغم فى حياء :

– حسناً .. ما دمت ترى ذلك .

راودته رغبة قوية فى أن يضمها إلى صدره ، ولكن أخلاقياته قاومتها فى شدة ، وهو يقول :

– هل توافقين إذن على اتفاقنا الجديد ؟

همست وهى تذوب حيًّا :

– نعم .

أحاط كفها الرقيقة براحته ، وهمس فى حنان :

– دعينا نخبر والدك بموافقتك إذن .

سارا جنباً إلى جنب ، وكفها مستكينة فى راحته ، حتى وصلا إلى مكتب والدها ، فطرقه (أشرف) فى هدوء ، وسمع صوت الدكتور (صبرى) يقول فى رصانة :

– ادخلا .

دفع (أشرف) الباب ، وابتسم وهو يقول :

– هل كنت تعلم أننا سنأتى معاً يا سيدى ؟

تطلع الدكتور (صبرى) إلى كفيهما المتعانقتين ،

ونقل بصره إلى وجه (سهام) ، الذى يفيض بحمرة الخجل ، ثم ابتسم فى حنان ، وأجاب :

– كنت أعلم أنكما ستتفقان .

ازداد احمرار وجه (سهام) خجلا ، فاتسعت ابتسامة والدها ، وهو يستطرد فى سعادة :

– سأعلن الخبر على الملأ .

* * *



٩ – الخطبة ..

حفل رائع ذلك الذى أقامه الدكتور (صبرى) فى حديقة فيلته ، احتفالاً بخطبة (سهام) إلى (أشرف) ..

ازدانت الفيلا كلها بالأضواء الملونة ، وازدحمت بنخبة من الأصدقاء والأقارب ورجال المجتمع فى القاهرة ..

تدفقت السعادة أنهاراً ، وعاد إلى الأسرة مرحها وتماسكها وحبها ..

كانت (منى) تبدو أكثر الجميع سعادة ، وهى تضحك وتمرح ، إلى جوار الخطيبين ، وتقول لـ (أشرف) مداعبة :

– ماذا أصاب تقاليد هذا المجتمع ؟ .. كيف تتزوّج الابنة الصغرى قبل الكبرى ؟

ضحك (أشرف) وهو يقول :

– يا إلهى !! .. لو علمت ذلك لبحثت عن زميل لك ، قبل أن أتقدم لخطبة (سهام) .

هزّت كتفيها ، وهى تقول فى مرح :

– ومن قال إننى كنت سأقبل ؟

ثم أردفت فى خبث مرح :

– اللهم إلا إذا كان يملك وسامة (حسين فهمى) ، أو رجولة (عمر الشريف) .

ضحك الجميع فى مرح ، وتقدّمت الأم منهم ، وهى تضحك قائلة :

– ألن تكفّى عن عبثك هذا أبداً يا (منى) ؟

ثم انحنت تقبّل (سهام) ، وهى تقول فى حنان :

– فليجعلها الله – سبحانه وتعالى – خطبة مبروكة ومقدّمة لزواج موفق يا بنيتى .

والتفتت إلى (أشرف) ، وهى تضحك ، قائلة :

– هلا انحنيت قليلا ، حتى يمكننى تقبيل وجنتك يا بنىّ ؟

انحنى نحوها (أشرف) ، وهو يقول :

– سمعاً وطاعة يا أماه .

قبلت الأم وجنته فى حنان ، وضحكت وهى تقول :

– كم أتمنى أن يكون زواجكما ناجحاً موفقاً ، مثل زواجى بالدكتور (صبرى) ، فيما عدا ...

بترت عبارتها بغتة ، وبدا وكأن مرحها قد تلاشى جزءًا من الثانية ، قبل أن تعود للابتسام ، وهى تستطرد :

– فيما عدا مشاكل الحياة بالطبع .

ثم أطلقت ضحكة ، بدت فى آذان الجميع شديدة الافتعال ، قبل أن تردف :

– هل تعلمان أننى والدكتور (صبرى) نتشابه فى كل شىء ؟ .. فى الصفات والأخلاقيات والمبادىء ، وحتى فى فصائل الدم ، فكلانا يحمل فصيلة (ا) موجبة .. تصوّروا ؟

ثم عادت تضحك ، وتتابع فى مرح حقيقى :

– إننا حتى نتذوّق نفس النوع من الفنون والموسيقى ، ونحب نفس الكتب والأفلام السينمائية و ...

قاطعها صوت الدكتور (صبرى) ، وهو يقول فى رصانة :

– كما أننا نحب الشخص نفسه .

ثم أردف مداعباً :

– فأنا أحب زوجتى ، وهى أيضاً تحب نفسها .

هتفت الأم فى استنكار :

– (صبرى) .. كيف تقول ذلك ؟

ثم شاركت الجميع ضحكاتهم ، وهى تستطرد :

– نسيت أن أقول إننا نتشارك فى حب المرح أيضاً .

وضع الدكتور (صبرى) يده على كتفها ، وأحاط كتف (منى) بذراعه الأخرى ، وهو يقول فى حنان :

– كما أننا لا نحب أن نثقل على خطيبين فى ليلة خطبتهما .

وقاد ابنته وزوجته بعيداً ، تاركين (سهام) و (أشرف) وحدهما ، فتسللت راحة (أشرف) إلى كف (سهام) ، واحتضنتها وهويقول فى همس عاطفى :

– هل تظنين أن زواجنا سيكون موفقاً كزواجهما ؟

تضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

– لست أدرى .. هذا فى علم الغيب .

ابتسم فى حب وهو يقول :

– دعينا نبحث الأمر إذن .. أنا أحب الموسيقى الكلاسيكية ، والأفلام الكوميدية ، والرسم التشكيلى .

ضحكت فى خجل ، وهى تقول :

– أعتقد أننا نتشابه فى هذه الأمور .

اتسعت ابتسامته ، وهمس وهو يضغط كفها فى رفق :

– هذا رائع .. ولو أنك تحبين الروايات العلمية ، وتحملين فصيلة الدم (و) فسنكون متشابهين فى كل شىء مثلهما .

ضحكت مرة أخرى ، وهى تهمس :

– يبدو أننا نختلف فى هذه النقطة ، فأنا أميل إلى قراءة الروايات العاطفية ، وأحمل فصيلة الدم (ا ب) .

ضحك وهو يقول :

– حسناً .. إننا لن ننشد الكمال و ....

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى دهشة لحظة ، ثم عاد يسيطر على ملامحه فى سرعة ، وإن تلاشى المرح من صوته تماماً ، وهو يقول :

– هل تعلمين أن والدك إنسان رائع يا (سهام) ؟

ابتسمت وهى تقول :

– ووالدتى كذلك .

ظهر الإشفاق فى عينيه ، وقال فى حنان :

– نعم .. كلاهما يستحق التقدير والإعجاب .

وتأمل الحفل الضخم الفاخر ، قبل أن يستطرد فى غموض حزين :

– ومن النادر أن يجد المرء قلبين مثلهما .

وفى صمت ، ودون أن تلحظ (سهام)، تساقطت من عينيه قطرة دمع حزينة ..

* * *



استيقظت (سهام) فى الصباح ، وهى تشعر بسعادة غامرة تتدفق فى عروقها ..

استيقظت باسمة الثغر ، منشرحة الصدر ، وقد بدت لها الدنيا بصورة جديدة ..

صورة وردية حالمة ، تملأ أعماقها ، وتبعث النشوة فى نفسها ..

قفزت من فراشها بنشاط ، ووقفت تتأمل صورتها فى مرآتها فى سعادة ، وقد انتبهت لأول مرة إلى جمالها الرقيق ، فرفعت يدها تتحسّس بشرتها الناعمة فى بطء ، حتى توقفت يدها أمام عينيها ، فافترّ ثغرها عن ابتسامة تفيض حبّاً وحناناً ، وهى تتأمل الدُّبلة الذهبية ، التى تزين إصبع يدها اليمنى ..

تلك الدبلة الذهبية ، التى تحمل اسم (أشرف) ، والتى وضعها بيديه فى إصبعها أمس ..

أسبلت عينيها فى سعادة ، وهى تسترجع أحداث

حفل خطبتها ، وأناقة (أشرف) ووسامته ، وطار عقلها إلى الحفل ، حتى خيل إليها أنها ما تزال تستمع إلى الموسيقى ، التى كانت تتردّد فى جوانبه ، وترى الضيوف فى ثيابهم الأنيقة ..

لقد كان الحفل يعيش فى خيالها ، ويتردّد مع أنفاسها ، ويسرى تحت جلدها ..

يكفيها أنه كان حفل خطبتها للرجل الذى أحبته ..

عادت تتأمل الدبلة الذهبية فى حب وهيام ، حتى سمعت طرقات هادئة على باب حجرتها ، فهمست :

– ادخل يا من بالباب .

استمرت الطرقات ، حتى انتزعتها من هيامها ، فهتفت :

– ادخل .

وعادت الابتسامة تملأ وجهها حينما رأت شقيقتها (منى) تدخل إلى حجرتها باسمة ، وهى تقول فى خبث مرح كعادتها :

– كيف حال العروس ؟

أطلقت (سهام) ضحكة تشفّ عن كل ما يعتمل فى أعماقها من سعادة ، وقالت :

– كيف حالك أنتِ يا (منى) ؟

هزّت (منى) كتفيها ، وقالت :

– لم يتغير فى نفسى شىء منذ أمس .

ثم أردفت فى لهجة مازحة :

– على عكسك بالطبع .

سألتها (سهام) فى خجل :

– لا أعتقد أننى تغيرت منذ أمس .. أليس كذلك ؟

تحسّست (منى) بشرة (سهام) فى حبّ ، وقالت وهى تبتسم :

– ربما ليس منذ أمس ، ولكن هذا الوجه البشوش الصبوح لم يكن كذلك ، منذ أيام قليلة .

أعادت إليها كلمات (منى) ذكرى السرّ ، الذى تنوء بحمله ، فعقدت حاجبيها ، وهى تغمغم فى ضيق :

– فلندع أمس للأمس يا (منى) .

ثم عادت تغتصب ضحكة مرحة ، وهى تردف :

– ألم تقرّرى اللحاق بى فى ركب الزواج ؟

ضحكت (منى) فى مرح ، وقالت :

– سأنتظر حتى تتضح لى نتيجة تجربتك أولا يا شقيقتى العزيزة .

فتحت (سهام) صِوَان ملابسها ، وهى تقول :

– ستهرعين عندئذ للزواج .

ضحكت (منى) ، ثم سألت شقيقتها فى اهتمام :

– هل تزمعين الخروج ؟

أجابتها (سهام) فى خجل :

– نعم .. سأذهب لزيارة (أشرف) فى المستشفى .

تألقت عينا (منى) ببريق مرح ، وهتفت :

– دعينى أعاونك على اختيار ثوبك ، ووضع زينتك إذن ، فهذا أول لقاء لكما بعد حفل الخطبة ، وأريدك أن تبهريه .

ولقد بهرته (سهام) بالفعل ..

كانت مثالا مجسماً للجمال والرقة ، وهى تلتقى به هذا الصباح ..

كانت ترتدى ثوباً ورديًّا رقيقاً ، تزين صدره نقوش ذهبية أنيقة ، ويلتف حول وسطه حزام رفيع من نفس النوع واللون ، وقد صفّفت شعرها الأسود الناعم بحيث أرجعت الجانب الأيمن منه إلى الخلف ، ليبرز أذنها ، وذلك القرط الوردىّ البسيط الجميل ، الذى يتدلىّ منها فى هدوء ، فى حين ألقت خصلة من شعرها على جبينها إلى يسار وجهها ، لينسدل شعرها كشلال أسود ناعم على كتفها الأيسر ، وتحلى جيدها بسلسلة ذهبية صغيرة ، تنتهى بحلية من الذهب ، تحمل الحرف الأول من حروف اسمها ، فى حين اكتفت فى زينتها بطلاء شفاهٍ هادىء ، له نفس لون ثوبها الوردىّ ، وطلاء أظفار من اللون نفسه ..

كانت باهرة الحسن والرقة ، حتى أن (أشرف) أطلق من بين شفتيه صفيراً ينم عن انبهاره وإعجابه ، قبل أن يهتف فى حرارة صادقة :

– يا إلهى !! .. أنت تبـدين كحوريات الجنة هذا الصباح يا (سهام) .

ضحكت فى مزيج من المرح والسعادة والخجل ، وهى تقول :

– وأنت تبالغ كثيراً هذا الصباح .

هتف وهو يتناول كفها الرقيقة ، ويحتضنها براحتيه فى حب :

– بل إننى لا أجـد التعبير الكافى لوصف جمالك يا حبيبتى .

كانت كلمات الإعجاب تتسلل من بين شفتيه إلى قلبها مباشرة ، فيخفق بالسعادة والحب ، فتركت كفها تستريح وتنعم بين راحتيه ، وهى تغمغم فى حياء :

– قالت (منى) إنه ينبغى أن أبهرك .

ضحك وهو يقول فى هيام :

– ولقد نجحت .

خفضت عينيها لتخفى فرحها وحياءها ، وبحثت عن كلمات تتحدث بها إليه ، فلم يهدها عقلها إلا لسؤال

واحد ، أسرعت تلقى به على شفتيها ، وهى تقول :

– هل توصلت إلى وسيلة مناسبة ؟

سألها ، وهو يتأمل ملامحها فى شغف :

– وسيلة مناسبة لماذا ؟

أجابته فى اهتمام :

– لمعرفة حقيقة نسبى .

انتفضت راحتاه حول كفها ، وتراجع رأسه على نحو مباغت ، ثم عقد حاجبيه ، وهو يقول :

– لست أرى ضرورة لذلك .

حدّقت فى وجهه لحظة فى دهشة ، ثم اكتسب صوتها بعض الحدّة ، وهى تقول :

– ماذا يعنى ذلك ؟ .. لقد وعدتنى أن ...

قاطعها وهو يقول فى خشونة زادت من دهشتها :

– أعتقد أننا سنضيع وقتنا فيما لا طائل منه ، لو أننا فعلنا ..

شعرت بالغضب ، فجذبت كفها من بين راحتيه فى قوة ، وهتفت :

- إذن فقد خدعتنى .

جاء دوره ليشعر بالدهشة ، وهو يهتف :

- خدعتك ؟!

صاحت فى غضب :

- نعم خدعتنى ... خدعتنى حتى تحصل على موافقتى على الزواج منك فحسب ، ولكنك لم تحرص حتى على استمرار خدعتك ، لقد تخليت عن وعدك صبيحة خطبتنا .

مدّ يده ليربّت على كتفها ، وهو يقول فى ألم :

- (سهام) .. إننى .

أبعدت يده فى غضب ، وتراجعت وهى تصرخ :

- ابتعد عنى .. أنت خائن مخادع .

صاح فى أسى :

- حاولى أن تفهمينى .

صرخت وقد بلغ منها الغضب مبلغه :

- أريد أن أفهم شيئاً واحداً .. أستحافظ على وعدك وتعاوننى ، أم لا ؟

بدا لها التردّد واضحاً فى ملامحه ، وبدت لها عيناه حزينتين حائرتين ، قبل أن يخفضهما ، وهو يقول فى صوت اعتصرته المرارة ، وخنقه الألم :

- لا .

اتسعت عيناها ، وتراجعت فى ذعر ، ثم اكتست ملامحها كلها بالكراهية والغضب ، وهى تقول فى مرارة :

- أيها الخائن .

وفى حركة حادة ، انتزعت دبلته الذهبية من إصبعها ، وقذفتها فى وجهه ، وهى تقول فى سخط :

- لقد خنت اتفاقنا وأصبحت دبلتك تؤلم إصبعى .

ظل ساكناً حزين العينين ، وهى تعدو من أمامه ، وتختفى غاضبة ، ساخطة ، باكية ، وظل هو ثابتاً فى مكانه ، كتمثال من الحجر ، حتى شعر بيد الدكتور (صبرى) توضع على كتفه ، وسمع صوته القلق يقول :

- ماذا حدث يا (أشرف) ؟ .. لقد أخبرنى بعض العاملين أنك تشاجرت مع (سهام) .

أطرق (أشرف) برأسه ، وغمغم فى حزن :

– هذا صحيح .

هتف الدكتور (صبرى) فى دهشة :

– ولكن لمـــاذا ؟

انحنى (أشرف) ، والتقـط الدبـلة الذهبيـة ، ورفعها ، بين سبابته وإبهامه ، أمام عينى الدكتور (صبرى) ، وهو يقول فى ألم :

– لقد فسخت (سهام) خطبتنا .

أُرْتِجَ على الدكتور (صبرى) ، فظل عاجزاً عن النطق دقيقـة كاملة ، وهو يحدّق فى الدبلة الذهبيـة فى ذهول ، ثم هتف بصوت أجش مختنق :

– كيف حدث هذا ؟ .. لم يمض على خطبتكما يوم واحد بعد .

أطرق (أشرف) ، وهو يقول فى حزن شديد :

– لقد اتهمتنى بالخيانة .

غمغم الدكتـور (صـــبرى) فى مزيج من الدهشـة والحيرة :

– الخيانة ؟!

أومأ (أشرف) برأسه إيجاباً ، وقال :

– نعم .. لأننى رفضت أن أعاونها فى البحث عن حقيقة نسبها .

ثم رفع عينيه إلى عينى الدكتور (صبرى) ، وقال :

– رفضت لأننى عرفت الحقيقة .

شحب وجه الدكتور (صبرى) وهو يقول :

– الحقيقة ؟! .. أية حقيقة يا ولدى ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يغمغم (أشرف) فى ألم :

– حقيقة نسبها .

ثم أردف فى صوت أقرب إلى البكاء :

– عرفت أن (سهـــام) ليست ابنتك يا دكتـور (صبرى) .

* * *

١١ ـ الفراق ..

عادت (سهام) إلى الفيلا باكية حزينة ..

عادت وقد فقد قلبها كل السعادة التى غادرت بها الفيلا فى الصباح ، واكتسب بدلا منها بحراً من الحزن والألم ..

لم يخف ذلك التبدل الرهيب على أمها وشقيقتها ، فأسرعتا إليها ، واحتوتها أمها بين ذراعيها ، وضمتها إلى صدرها ، وربّتت فى لوعة على جسدها ، الذى يرتجف كعصفور مبتل ، فى ليلة قارسة البرودة ، وشاركتها بكاءها فى جزع ، فى حين سألتها (منى) فى مزيج من القلق والخوف :

ـ ماذا حدث يا (سهام) ؟

صرخت (سهام) فى ألم :

ـ لقد تركت (أشرف) .. فسخت خطبتى معه .

اتسعت عيون الأم والشقيقة فى ذهول ، وهتفت الأولى فى ذعر :

ـ فسخت خطبتك ؟! .. كيف يا بنيتى ؟.. لقد كنتما أمس صورة للسعادة والهناءة .

صاحت (سهام) ، وهى تدفن وجهها المبتل بالدموع فى صدر أمها :

ـ إنه خائن يا أماه .. خائن .

هتفت الأم فى دهشة :

ـ خائن ؟!

فى حين أسرعت (منى) تسألها :

ـ هل كشفت أنه يحب فتاة أخرى ؟

غاص قلب (سهام) بين ضلوعها ...

كيف تخبرهما بحقيقة الأمر ؟..

كيف تشرح لهما طبيعة الاتفاق ، الذى خانه (أشرف) ؟ ..

كيف تدلى بالحقيقة ، من دون أن تفضح السر أمام شقيقتها (منى) ؟..

لم تجد لديها ما تفصح عنه، فهتفت وهى تواصل بكاءها :

– إنه خائن فحسب ، ولا أريد التحدث فى الأمر .

سألتها والدتها فى إصرار :

– هل تأكدت من خيانته ؟.. ربما التبس عليك الأمر ، أو ...

قاطعتها (سهام) صارخة :

– كفى يا أماه .. لقد تركته ، ولن أعود إليه أبداً ..

ثم انفلتت من بين ذراعى أمها ، وأسرعت إلى حجرتها ، وأغلقت الباب خلفها ، ثم ارتمت فوق فراشها باكية ..

لم تكن تستطيع – حتى هذه اللحظة – تصوّر ما فعله بها (أشرف) ..

أخذ عقلها الحزين الملتاع يبحث عن تفسير مقنع ..

تصوّرته إنساناً وصوليًّا منافقاً ، لعب بقلبها ، ومشاعرها ، ليضمن الارتباط بها ، حتى يحتل مكانة أعلى فى مستشفى والدها الخاص ..

تصوّرته وغد مخادع ، أوقعها فى حبائله بخداعه وانتهازيته ..

رفعت يدها أمام وجهها ، تتأمل إصبعها الخالى ، بعد أن نزعت منه دبلة الخِطبة الذهبية ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تتذكر شكلها ، وهى تتألق فى إصبعها منذ ساعات قليلة ..

يا له من قصير عمر هذه الدبلة الذهبية المتألقة !!

إنها لم تحى حتى يوماً واحداً فى إصبعها ..

يا لرحلة قلبها المسكين !..

لقد أمضى عمره كله فى هناءة ، حتى برز ذلك السرّ الرهيب أمامه ، فبدأ رحلته المعذبة نحو الحقيقة ، ولم يكد يلتقى بقلب آخر ، وجد فيه رفيقاً لرحلته ، وأنيساً محبًّا ، حتى خانه الرفيق ، وتخلّى عنه الأنيس المحب ، وتركه يزدرد عذابه وحده ويواصل رحلته نحو البحث عن الحقيقة ..

يا لها من وحدة !! ويا لها من رحلة !!

صرخت فى أعماقها :

– متى تضع رحالك يا قلبى ؟.. متى ترسو بك السفينة على شاطئ الحقيقة ؟...

– متى تهدأ عواصفك ؟.. متى تسكن رياحك ؟..
لقد تخلى عنها (أشرف) ...
خانها رفيق رحلة قلبها ...
صرخت وهى تغلق عينيها فى ألم :
– إنه خائن .. خائن .. خائن .
وفى اللحظة نفسها كان (أشرف) يجلس كسير الفؤاد ، فى حجرة الدكتور (صبرى) ، ويردّد العبارة نفسها :
– لقد شعرت أننى خائن ، لا أستحق قلبها .
تطلع إليه الدكتور (صبرى) بقلب حزين ، وغمغم فى صوت شاحب كوجهه :
– ولكنك لست كذلك يا ولدى .. لقد كنت شهماً شجاعاً .. لقد ضحيت بحبك لها ، وباحترامها لك حتى لا تحطم قلبها .
رفع إليه (أشرف) عينين دامعتين ، وغمغم فى حزن :
– ولكن هل كنت على حقّ فيما فعلت ؟

انتقل حزنه إلى عينى الدكتور (صبرى) ، وهو يخفضهما متمتماً :
– لست أدرى يا ولدى .. لست أدرى .
غلفهما الصمت لحظة ، قبل أن يقول (أشرف) فى شرود ، وكأنه يحدث نفسه :
– لقد كنت أتصور فى البداية ، أو أتمنى ، أن تكون (منى) هى ابنتك المتبناه ، ربما لأننى كنت أخشى من تحطم قلب (سهام) ، لو كانت الحقيقة عكس ذلك .
ثم ابتسم ابتسامة مريرة ، وهو يستطرد :
– ومن العجيب أن عقلى قد استكان لهذه الأمنية ، وأخذ يبحث عن الدلائل المنطقية التى تؤيدها ، وأقنعت نفسى أن الإنسان بطبعه أنانى ، لا يحب أن يشاركه أحد حبه لأبنائه ، وأنه لا يميل للتبنى إلا إذا كان لم ينجب طفلا من صلبه .
أحاطهما الصمت مرة أخرى ، ثم أردف (أشرف) :
– تصوّرت أنه من المنطقى أن تتبنى وزوجتك

(منى) ؛ لأنكما لم تكونا قد أنجبتما (سهام) بعد ، وعندما جاءت (سهام) إلى الدنيا كنتما قد تعلقتما بـ (منى) فاحتفظتما بالطفلتين معاً ، وأوليتماهما كل حب وعطف وعناية ، ولم أستطع تصور العكس ، فالإنسان – كما كنت أظن – حين ينجب ، لا يفكر أبداً فى تبنى طفل آخر .

كان وجه الدكتور (صبرى) شديد الشحوب ، وكان صوته ضعيفاً متحشرجاً ، وهو يغمغم :

– ثم ؟!

قلب (أشرف) كفيه ، وقال :

– ثم جاء حديث زوجتك أمس فى حفل خطبتنا ، وذكرت أنك وهى تحملان نفس فصيلة الدم (ا) ، موجبة ، وسألت أنا (سهام) بالمصادفة عن فصيلة دمها ، فأجابت أنها (ا ب) ، وهنا اتضحت لى الحقيقة كلها .

أطرق الدكتور (صبرى) بوجهه ، ليخفى دمعة حزينة تسللت عبر مقلتيه ، فى حين واصل (أشرف) ، بنفس لهجته الحزينة :

– إنها نفس الوسيلة المستخدمة فى قضايا إثبات البنوة .. نفس الوسيلة التى تقول إنها تنفى البنوة ، ولكنها لا يمكن أن تثبتها ، فكلانا يعلم أن قوانين الوراثة لا يمكنها أن تسمح لزوجين ، يحمل كلاهما فصيلة دم (ا) ، بإنجاب ابنة تحمل فصيلة الدم (ا ب) .. هذا مستحيل كما يعلم كل منا .

غمغم الدكتور (صبرى) :

– وهكذا كشفت الحقيقة .

أجابه (أشرف) فى شرود :

– نعم .. كشفتها ، وأصبحت أرتجف من تصوّر كشف (سهام) لها ، وفضلت فسخ خطبتنا عن معاونتى لها لكشف هذا الأمر .

تطلع إليه الدكتور (صبرى) لحظات فى صمت ، ثم نهض إليه ، ووضع يده على كتفه ، وهو يقول :

– لقد كنت أشك فى قوة حبك لـ (سهام) ، بسبب قلة الوقت الذى استغرقتماه فى تعارفكما يا ولدى ، ولكننى واثق الآن من أنك تحمل قلباً عاشقاً نادر الوجود .

سقطت قطرة دمع حزينة من عينى (أشرف) ، وهو يقول فى ألم :

– وما الفائدة من هـذا الكشف يا سيدى ؟ لقـد كان ثمنه باهظاً ..

ثم أردف وهو يخفى وجهه بين راحتيه :

– كان الفراق بينى وبين (سهام) إلى الأبد .

* * *



١٢ – بين جيلين ..

مرة ثانية عاد الدكتور (صبرى) مبكراً إلى فيلته ..

ومرة ثانية أثارت عودته دهشة ابنته (منى) ، وزوجته ، وخاصة حينما سألها فى هدوء :

– أين (سهام) ؟

اكتفت (منى) بالتطلّع إليه فى حيرة ، فى حين غمغمت زوجته ، وهى تشير إلى الطابق العلوىّ :

– فى حجرتها .. ماذا حدث يا (صبرى) ؟

أجابها وهو يتجه إلى حجرة (سهام) :

– مشكلة بسيطة ، ستحل عاجلا بإذن الله .

وشاركتهما (سهام) دهشتهما ، عندما رأت والدها يدلف إلى حجرتها فى صمت ، وقد شفّت ملامحه عن صرامة لم تعهدها به من قبل ، فأشاحت بوجهها عنه ، وخفضت عينيها دون أن تنطق بكلمة واحدة ، إلا أنه اقترب منها ، ومدّ قبضته أمام وجهها ، وفتحها فى هدوء ، واتسعت عيناها دهشة ، وهى تحدّق فى الدبلة

الذهبية المستقرة فى راحته ، قبل أن ترفع عينيها إليه ، وتغمغم فى صوت مرتجف :

ـ ما هـذا ؟

أجابها فى هدوء لا يخلو من الصرامة :

ـ دبلة خِطبتك .. لقـــد سقطت من يدك فى المستشفى ، فرأيت إحضارها لك مرة أخرى .

هتفت فى استنكار واعتراض :

ـ أبى ..

قاطعها فى صرامة عجيبة ، لم تعهدها فيه أبداً :

ـ لا أريد كلمة واحدة يا (سهام) ، ستعيدين هذه الدبلة إلى إصبعك فورًا .

اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تهتف :

ـ ولكننى لا أريده .

أدهشها أن أجابها فى حزم :

ـ لم أطلب منك أن توافقى على خطبته ، إنما أطلب منك وضع هذه الدبلة فى إصبعك .

رفعت عينيها إليه فى دهشة ، وارتعدت الكلمات على شفتيها ، وهى تقول :

ـ ماذا تعنى يا أبى ؟

جلس إلى جوارها على طرف الفراش ، وقال :

ـ إننى أحاول الحفاظ على مظهرنا الاجتماعى .

ردّدت خلفه فى دهشة :

ـ مظهرنا الاجتماعى ؟!

أجابها فى حزم غاضب :

ـ نعم .. ماذا يقول الناس والمجتمع ، حينما يعلمون أن ابنتى قد فسخت خِطبتها ، بعـد أقل من أربع وعشرين ساعة منها ؟.. سنصبح مضغة فى الأفواه ، وأنا أرفض هذا تماماً .

حارت فى الجواب لحظات ، ثم قالت فى حنق :

ـ ليقولوا ما يحلو لهم ، إنها مجرد خطبة فاشلة لا أكثر .

هتف فى غضب :

ـ هذا ما يقوله أبناء جيلك ، أما جيلنا فيختلف ، والمجتمع لا يتكوّن كله من جيلك أنت يا (سهام) ، الذى

ينظر إلى الأمور كلها نظرة بسيطة سطحية لا مبالية ، إنه يتكوّن من جيلينا معاً ، ونحن جزء لا يتجزأ منه ، ولا بد لنا من الحفاظ على تقاليده .

صاحت فى سخط :

– أى منطق هذا الذى يجعلنى أرتبط بإنسان أرفضه ، خوفاً من الأقاويل .

أجابها فى صرامة :

– منطق المجتمع الذى نحيا فيه ، ونمتزج به .

ثم نهض فى حدّة ، وتحرك خطوة إلى الإمام ، وقال وهو يوليها ظهره :

– أكرر أننى لم أطلب منك الارتباط به ، ولكننى أطلب أن تستمر الخطبة شكلاً ، حتى يمضى من الوقت ما يكفى لإعلان فسخها .

غمغمت فى حنق :

– هذا نوع من النفاق الاجتماعى .

أجابها فى برود :

– فليكن ، ولكننا سنحرص عليه .

ثم استدار إليها مردفاً :

– سيبقى أمر فسخ الخطبة محصوراً بين جدران هذه الفيلا ، حتى أسرة (أشرف) لن تعلم به ، وستلتقيان أنت وهو ، وتخرجان للتنزه كما يفعل أى خطيبين محبين ، وحتى يحين وقت فسخ الخطبة ، سيظل هذا الأمر سرًّا دفيناً .

غمغمت فى ضيق :

– مثل السر الآخر .

كانت تريد اجتذاب عطفه بذكر ذلك ، ولكنه أجابها فى حزم :

– تماماً .

ثم وضع الدبلة الذهبية أمام عينيها ، وهو يقول فى صرامة :

– والآن ضعى هذه الدبلة فى إصبعك .

تناولت (سهام) الدبلة الذهبية فى استسلام، ودستها فى إصبعها فى بطء ، ثم قالت فى عناد :

– إننى أرفض هذا الأسلوب ، ولكننى سأطيع أوامرك يا أبى .

وأردفت فى حنق :

– وليكن معلوماً لديك أن هذا سيزيد من كراهيتى لـ (أشرف) .

كان هذا رأى والدتها أيضاً ، حينما أخبرها الدكتور (صبرى) بالأمر ، ولكنه أجابها قائلا :

– لست أظن أنها ستكرهه إلى هذا الحد .. ربما أحنقها فى البداية اضطرارها للتعامل معه كخطيب ، ولكنى واثق أن (أشرف) سيعرف كيف يأسرها فى النهاية .

هزّت الأم رأسها فى حيرة ، وقالت :

– وما رأى (أشرف) فى خطتك هذه ؟

مطّ شفتيه ، وقال :

– لقد أبت عليه كرامته قبول الفكرة فى البداية ، ولكنى كنت مصرًّا على ضرورة محاولة الإصلاح بينهما ، وبعد جهد جهيد أمكننى إقناعه .

سرى الحنان فى عينى الأم وصوتها ، وهى تقول :

– من الواضح أنه يحبها حقًّا .

أجابها الوالد فى ثقة :

– بلا شك .. لقد احتمل إهانتها له ، واتهامها إياه بالخيانة ، مفضلا ذلك على معرفتها للحقيقة ، وقبل تظاهره

بفرض نفسه عليها أملاً فى اجتذاب قلبها مرة أخرى ، وهذا هو الحب الحقيقى ، الذى ينسى الإنسان فيه نفسه ، ولا يفكر إلا فيمن يحب ، فتهون لديه أية تضحية من أجله .

غمغمت الأم فى شرود :

– يدهشنى أن تثمر علاقتهما القصيرة مثل هذا الحب القوى .

أومأ برأسه وهو يقول :

– لقد أدهشنى ذلك أيضاً ، ولكنى أعتقد أنه يحبها بأكثر مما تحبه هى .

عقدت الأم حاجبيها ، وهى تسأله فى حيرة :

– ولِمَ تظن ذلك ؟

لوّح بكفه فى الهواء ، وهو يقول :

– انظرى كيف كان تصرفهما إزاء أول عاصفة تهب على حبهما .. لقد ضحى هو من أجلها ، وقاوم العاصفة فى شهامة وقوة ، فى حين تراجعت هى فى سرعة ، وفضلت الهبوط عند أول شاطئ .

هتفت الأم وكأنها تدافع عن ابنتها :

– ولكنه أكبر سناً منها ، وأكثر خبرة ، وهو

رجل ، والرجال أكثر صلابة – فى العادة – من النساء .

ابتسم ، وقال وهو يحيطها بذراعيه فى حنان :

– ولكننى أراك شديدة الصلابة يا زوجتى العزيزة .

أراحت رأسها على صدره ، وهى تهمس :

– هذا لأننى أحبك يا زوجى الحنون .

ضحك وهو يقول :

– أنت توافقين على رأيى إذن ؟

استكان رأسها على صدره لحظة فى صمت ، ثم رفعت عينيها إليه ، وقالت :

– صدقنى يا (صبرى) .. إن (سهام) ما زالت تحب (أشرف) ، ولولا ذلك ما انهارت مشاعرها على هذا النحو حينما تركته ، ولكنها تعانى صراعًا عنيفًا يؤرق نفسها ، وينأى بها عن التفكير السليم .

وافقها بإيماءة من رأسه ، وهو يغمغم :

– نعم..إنها تعانى عذاب رحلة البحث عن الحقيقة.

غمغمت فى أسى :

– الحقيقة التى يعرفها (أشرف) ، والتى حرصنا على إخفائها طيلة كل هذه الأعوام .

ثم رفعت رأسها إليه ، وهى تسأله فى قلق :

– ولكن هل يعرف الحقيقة كلها ؟

صمت الوالد لحظات ، ثم أجاب فى هدوء :

– كلاً يا عزيزى .. إنه يعرف نصف الحقيقة فحسب .

تمتمت فى حزن :

– يا للقدر !! .. لقد أبى أن يجعلنا ننعم بزواج ابنتنا فى سعادة .

مطّ شفتيه ، وهو يقول :

– من يدرى يا عزيزى ؟.. ربما كان يدخر لنا مزيداً من السعادة فى المستقبل .

سالت من عينيها قطرة دمع ، وهى تقول :

– كيف ؟! .. لقد أفشى السر الذى احتفظنا به طويلا بلا رحمة ، أتظن أننى لا أتعذب طيلة الوقت ، وأنا أقرأ حيرة (سهام) وعذابها فى عينيها ؟

أتظن أننى شعرت لحظة واحدة بالراحة ، منذ علمت هى بالسر ؟..

ضمها إلى صدره مرة أخرى فى حنان ، وهمس :

- ربما كان القدر رحيماً بنا ، حينما كشف لها نصف السر فحسب .

رفعت عينيها الدامعتين إليه فى لهفة ، وهى تسأله :

- هل تظن ذلك ؟

عاد يضمها إلى صدره ، ويريح رأسها عليه ، وهو يشرد ببصره بعيداً ، ويغمغم :

- دعينا نترك مركب الحياة يسير يا عزيزتى ، ولنترك القدر يلعب لعبته ، دون أن نحاول معاندته ، أو مقاومته .

ثم أردف بمزيد من الشرود :

- ثم من يدرى ، ماذا تخبئه لنا الأيام ؟

غمغمت فى حزن :

- نعم .. من يدرى ؟

* * *

١٣ - على حافة بركان ..

توقفت سيارة (أشرف) الصغيرة ، أمام كازينو صغير على ضفاف نيل القاهرة الساحر ، بعد شهر من هذه الأحداث ، وهبط هو منها فى حلة أنيقة داكنة ، ودار حول مقدمة السيارة فى رصانة ، وفتح بابها الآخر ليسمح لـ (سهام) بالهبوط ، كما يفعل أى سيد مهذب ..

وهبطت هى من السيارة أنيقة رقيقة ، كزهرة يانعة فى بستان وارف ، وتأبطت ذراعه فى حركة آلية ، وسارت إلى جواره داخل الكازينو ، حتى ضمتهما مائدة أنيقة فى ركنه ، فغمغمت هى فى صوت ينم عن الضجر :

- لقد سئمت هذه التمثيلية السخيفة .

أجابها فى هدوء :

- وأنا أيضاً .

مطّت شفتيها فى ازدراء ، وقالت :

- لست أدرى كيف يمكن لرجل يعتز بكرامته ، أن يقبل مثل هذا الوضع السخيف ؟

مرّت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيبها فى برود :

– إنه وضع فرضته الظروف الاجتماعية .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حنق :

– تبًّا للظروف الاجتماعية.. إننى أكره تواجدنا معاً.

عاد يجيبها فى برود :

– سرعان ما تعتادين الأمر .

هتفت فى غضب :

– أعتاده ؟!

ثم تنبهت لارتفاع صوتها ، فعادت تخفضه وهى تقول :

– هل تظننى أعتاد مثل هذا الموقف السخيف ؟

حدّجها بنظرة باردة ، خيل إليها أنها غاصت إلى أعماقها ، وسبرت أغوارها ، قبل أن يميل نحوها ، ويقول فى لهجة اشتمت منها رائحة الغضب :

– اسمعى يا (سهام) .. كلانا يرفض هذا الوضع ، فأنت تكرهين التظاهر بالسعادة مع شخص ترفضينه ، وأنا أكره وآبى أن أرتبط بفتاة تكرهنى ، ولكننى

احتمل سخافة الموقف من أجل والدك ، الذى أجِلُّه ، وأحترمه كثيراً .

غمغمت فى لهجة استفزازية :

– ومن أجل منصب أكبر ، ودخل مضاعف فى مستشفاه الخاص .

احتقن وجهه فى شدة ، وارتسم الغضب فى كل خلجة من خلجات وجهه ، حتى خيل إليها أنه سيصفعها على وجهها ، فانكمشت فى مقعدها فى خوف ، إلا أنه استعاد هدوءه بسرعة ، وبدا صوته أكثر برودة ، وهو يقول :

– هل يعجبك المكان ؟

أغضبها تجاهله لاستفزازها الواضح ، فهتفت فى صوت خافت :

– أنت رجل بلا كرامة .

عاد وجهه يحتقن فى غضب ، ومال نحوها بغتة ، وهو يقول فى صرامة أخافتها :

– اسمعينى جيداً .. إننى لم أعد أحتمل أسلوبك

المغرق فى الاستفزاز هذا ، وأكرر أن كلينا يبغض هذا الوضع ، ولكننا سنحتمله معاً ، ومع ذلك لن أغفر أى تلميح استفزازى جديد ، ولو كررت قولك هذا مرة أخرى فسأصفعك على وجهك ، غير مبالٍ بالمكان ، أو الزمان الذى نتواجد فيه .

تسلل الخوف من كلماته إلى عروقها ، حتى أنها لم تستطع النطق بكلمة واحدة ، وبدت لها عيناه الخضراوان شديدتى الصرامة ، فارتجف جسدها أمام نظراتهما ، وانكمشت فى مقعدها حتى بدا وكأن جسدها الصغير يزداد ضآلة ، مما أثار فى قلب (أشرف) حناناً دافقاً ، فلان صوته وهو يستطرد :

— هل فهمتنى ؟

أومأت برأسها إيجاباً ، فاعتدل ، واستعاد صوته هدوءه ، وهو يقول :

— والآن هل يعجبك المكان ؟

أجابته فى استسلام ، وكأنها لم تعد تجرؤ على معاندته :

— نعم .

كانت المشاعر التى تملأ كيان كل منهما عجيبة متضاربة ..

كان الناظر إليهما من بعيد يظنهما عاشقين ، يرفلان فى ثوب السعادة والهناءة ..

يظن حديثهما الهامس مناجاة حب وهيام ..

ولكنّ كلاًّ منهما يحمل للآخر مشاعر متناقضة .

كان (أشرف) — كعهده — يشعر نحوها بحب جارف قوى ، زادت الأيام من تأججه واشتعاله ، ولكنه فى الوقت نفسه يشعر بالسخط من أسلوبها فى معاملته ، ويتشكك فى كل يوم يمر بهما فى صحة خطة والدها ..

كان والدها يظن أن تقاربهما سيوقظ فى قلبها مشاعر الحب نحوه ، ولكن (أشرف) كان يلمس منها فى كل يوم مزيداً من التباعد والتنابذ ، حتى كره ذلك الوضع ، وبات يقاوم فى كل لحظة رغبته فى إخبارها بالحقيقة ..

ولكن شهامته ، وحبه لها ، كانا يقفا له دائماً بالمرصاد ..

كان يحتمل كل شىء من أجلها ..

أما (سهام) فقد كان عقلها وقلبها يتصارعان عشرات المرات فى اليوم الواحد ..

كان قلبها يزداد تعلقاً بـ (أشرف) ، وحبًّا له ، كلما تلاقيا وتعارفا ، ولمست رجولته ، ورقته وحنانه..

وكان عقلها يرفض أن يغفر له خيانته لاتفاقهما ..

كانا كعاشقين يجلسان على حافة بركان ، ولا أحد منهما يعلم مصيره ..

فإما أن يثور البركان ، ويقذف حممه الملتهبة لتلتهم كل شىء ، وتجرف أمامها كل المشاعر ، أو يهدأ ، ويخمد ، ويتركهما ينعمان بحياتهما فى حب وتوافق ..

الحسنة الوحيدة لهذه المشاعر المتناقضة ، هى أن (سهام) قد نسيت أمر البحث عن نسبها ..

كانت تعيش بكيانها كله فى مشكلة علاقتها بـ (أشرف) ..

توقفت سفينة رحلتها فى مرفأ حبه ، وحارت .. أتواصل المسير ، أم تلقى مرساها فى هذا المرفأ ..

ولم تهدأ حيرتها أبداً ..

وفى تلك الليلة عادت إلى الفيلا ، وهذا السؤال يشغل عقلها تماماً ، حتى أنها لم تشعر بشقيقتها (منى) وهى تدخل حجرتها ، إلا عندما قالت (منى) فى مرح :

– أين عقلك ؟

انتفض جسدها فى دهشة ، وكأنها تستيقظ من حلم مفاجىء ، ثم اغتصبت ابتسامة وهى تقول :

– لقد شردت قليلا فحسب .

جلست (منى) إلى جوارها على حافة الفراش ، وسألتها فى اهتمام :

– أكنت تفكرين فى (أشرف) ؟

كادت تجيبها بالإيجاب ، إلا أن عنادها منعها من ذلك ، فأشاحت بوجهها وهى تقول :

– كلاً .

ابتسمت (منى) فى حنان ، وقالت :

– لقد تغيرت يا (سهام) .. إنها أول مرة تخفين عنى حقيقة مشاعرك .

ترقرقت دمعة فى عينى (سهام) ، ثم سرعان ما انطلقت تبلل وجهها ، وهى تهتف :

– محال أن أفعل يا (منى) .. إنك شقيقتى ، وصديقتى الوحيدة .

احتضنتها (منى) فى حنان ، ومسحت على شعرها الأسود الناعم ، وهى تغمغم :

– لقد كنت تفكرين فيه .

همست (سهام) من وسط دموعها :

– نعم يا (منى) .

عادت (منى) تسألها فى حنان :

– هل تحبينه ؟

لفهما الصمت لحظة ، قبل أن تغمغم (سهام) :

– لست أدرى يا (منى) .. إننى حائرة .

قالت (منى) فى لهجة عطوف :

– ولماذا تحتارين يا (سهام) ؟ .. إننى أراه شابًا

وسيماً ناجحاً ، ورجلاً مهذباً حنوناً ، وهو فى الوقت نفسه خطيبك رسميًّا ، فلمَ لا تستسلمين لحبه .

هتفت (سهام) ، وهى تبكى :

– إنه خائن يا (منى) .

سألتها (منى) فى حيرة :

– وما وجه خيانته ؟

حارت (سهام) فى الجواب ، فغمغمت فى انكسار :

– إنه خائن فحسب .

صمتت (منى) لحظات ، ثم قالت فى هدوء :

– اسمعينى يا (سهام) .. الخيانة كلمة قاسية ، واتهام عنيف ، وليس من السهل أن نلقى به هكذا ، فى قسوة وصرامة ، ودعينى أسألك سؤالا : كيف يتعامل معك (أشرف) طوال هذا الشهر ؟

غمغمت (سهام) فى استسلام :

– إنه يبدو بالغ الرقة والحنان والتهذيب .

سألتها (منى) فى اهتمام :

– وهل يبدو لك أنه يفتعل ذلك ؟

تردّدت (سهام) لحظة ، استرجعت فيها كل تفاصيل علاقتها بـ (أشرف) ، ثم أجابت :

- كلاً .

هتفت (منى) :

- لماذا ترفضينه إذن ؟

لاذت (سهام) بالصمت ، وازداد انهمار الدموع من عينيها ، فعادت (منى) تربّت على كتفها فى حنان ، وتستطرد :

- راجعى موقفك معه يا (سهام) .. ربما أخطأت فى اتهامك له بالخيانة ..

ربما أسأت فهم بعض الأمور ، أو تعسفت فى تفسيرها .. لا بد أن تستمعى لتبريره أولا .

أضاءت كلمات (منى) طريقاً جديداً أمام (سهام) ، وجعلتها - لأول مرة منذ خلافها مع (أشرف) - تنظر للأمور بنظرة أخرى ..

لماذا نقض (أشرف) اتفاقهما ؟..

لماذا تبدل بهذه السرعة ؟..

لقد تصوّرته - أيامها - وصوليًّا منافقاً ، ولكنها ، وبعد أن استزادت تعرفاً له ، أصبحت تنفى هذا التصور تماماً ، فلماذا فعل ذلك ؟ ..

حتى لو كان وصوليًّا ، أما كان يجدر به أن يحرص على إرضائها ، حتى يتم زواجهما ..

بدا لها التساؤل عسيراً ، فغمغمت فى خفوت :

- أعتقد أنك على حق يا (منى) ، ينبغى أن أسأله .

ثم أردفت فى لهجة حازمة ، تشفّ عن اتخاذها لهذا القرار :

- نعم .. لابدّ أن أسأله .

* * *



١٤ – زيارة مفاجئة ..

جلس الدكتور (صبرى) يراجع بعض الأوراق الخاصة بمستشفاه ، وكان قد وصل إلى قمة انهماكه عندما سمع طرقات منتظمة على باب حجرته ، فقال دون أن يرفع عينيه عن الأوراق :

– ادخـل .

سمع صوت الباب وهو يفتح فى هدوء ، وصوت أقدام رصينة تدخل إلى حجرته ، فرفع عينيه إلى زائره ، وابتسم فى حنان ، وهو يقول :

– مرحباً يا (أشرف) .. كيف حالك ؟

غمغم (أشرف) ، وهو يغتصب ابتسامة هادئة :

– فى خير حال يا سيدى .

أزاح الدكتور (صبرى) أوراقه جانباً، وهو يسأله :

– إنك تبدو مرهقاً .. هل تؤذيك حرارة الجو فى يونيو ؟

ابتسم (أشرف) ابتسامة باهتة ، وقال :

– كلا يا دكتور (صبرى) ، فالمستشفى مزوّد بمكيفات هواء تجعلنا ننسى حرارة الجو فى الخارج .

لم يغب توتره عن عينى الدكتور (صبرى) ، ولكنه تظاهر بتجاهل ذلك ، وهو يقول فى مرح مصطنع :

– من الطريف أنك حضرت إلى مكتبى .. كنت سأذهب إليك الآن ، لأدعوك إلى حفل عيد ميلاد ابنتى ...

قاطعة (أشرف) فى صوت حانق :

– إننى لم أعد أحتمل يا سيدى .

عقد الدكتور (صبرى) حاجبيه ، وهو يسأله فى قلق :

– لم تعد تحتمل ماذا يا ولدى ؟

صمت (أشرف) لحظة، ثم رفع عينيه إلى أستاذه، وبدا الحزن متجلّياً فيهما ، وهو يقول فى مرارة :

– لم أعد أحتمل الاستمرار فى تنفيذ خطتك يا سيدى .

صمت كلاهما بعض الوقت ، وبدا الصمت ثقيلا

يضغط صدريهما ، وتضيق له أنفاسهما ، قبل أن يقول الدكتور (صبرى) فى هدوء :

– أما زالت (سهام) تقاوم التقارب بينكما ؟

هتف (أشرف) فى ألم :

– إنها لا تقاومه فحسب ، بل تقاتله وتحاربه فى شراسة .

ثم خفت صوته ، وهو يردف :

– ثم إنها تتعمد استفزازى ، وجرح كرامتى كلما التقينا .

شعر الدكتور (صبرى) بالندم والحزن ، فغمغم فى أسف :

– لقد كنت أظن ..

قاطعه (أشرف) قائلا :

– أنا أيضاً كنت أظن أن تقاربنا سيربط قلبينا مرة أخرى برباط الحب ، بل إننى كنت أحلم بذلك وأتمناه ؛ لهذا وافقت على المضىّ قدماً فى خطتك .

ثم لوّح بكفيه ، وهو يقول فى مرارة :

– ولكن النتيجة كانت عكسية .. إنها تزداد عناداً وإصراراً على الرفض ، فى كل مرة نلتقى فيها .

ونهض فى حدّة ، وهو يستطرد :

– لقد احتملت إهاناتها واستفزازها طيلة الوقت ، حتى فقدت أعصابى أمس وكدت أصفعها فى غضب .

غمغم الدكتور (صبرى) فى ألم :

– يا إلهى !!

هتف (أشرف) :

– لهذا قررت التوقف عن تنفيذ خطتك ياسيدى .. قبل أن يتحول حبي لـ (سهام) إلى كراهية ، وقبل أن تصل جراح كرامتى إلى ذروتها ، فأرفضها كما ترفضنى .

وأطرق برأسه ، وهو يردف فى حزن :

– ومعذرة لقولى هذا يا سيدى .

ظل الدكتور (صبرى) جالساً خلف مكتبه فى صمت ، وقد اكتست ملامحه بالأسف والحزن ، ثم نهض فى بطء ، واتجه إلى حيث يقف (أشرف) ،

وربّت على كتفه ، وهو يقول فى حنان أبوىّ صادق :

— لا أحد يمكنه أن يلومك على موقفك هذا يا ولدى .

ثم أردف فى أسى :

— لقد حاولنا وفشلنا .

بذل (أشرف) مجهوداً كبيراً ، ليمنع دمعة حزينة من الفرار عبر عينيه ، وهو يغمغم بصوت مختنق :

— لا يمكن فرض العواطف والمشاعر بالقوة يا سيدى .. صحيح أننى أحب (سهام) ، ولكنه من المستحيل أن أجبرها على مبادلتى الشعور نفسه ، وما دامت تصرّ على رفضى ، فلن أحاول إجبارها على العكس .

واكتسب صوته رنة حزينة ، وهو يستطرد :

— وأتمنى لها زواجاً موفقاً ، مع زوج يحبها وتحبه .

غمغم الدكتور (صبرى) ، وهو يجفف دمعة فارة :

— إنه القدر يا ولدى .

ثم عاد يربّت على كتف (أشرف) ، ويقول :

— الله وحده يعلم كم تمنيت زواجكما ، ولكنه القدر .

وازداد صوته خفوتاً ، وهو يقول :

— ومن يدرى ؟

انتزع (أشرف) من إصبعه الدبلة الذهبية ، التى تحمل اسم (سهام) ، وناولها للدكتور (صبرى) ، وهو يقول فى حزن :

— حان الوقت لوضع حد لخطتك يا سيدى .. اعط هذه الدبلة الذهبية لـ (سهام) ، وقل لها إنها أصبحت حرة ، وإننى أتمنى لها مستقبلا سعيداً .

التقط الدكتور (صبرى) الدبلة الذهبية بين أصابعه ، وشدّد قبضته عليها فى قوة ، وكأنه يأبى وصول الأمور إلى هذا الوضع ، ولم يكد يفعل حتى دقّ باب حجرته مرة أخرى ، فقال فى شرود :

— ادخل يا من تدق الباب .

فُتحَ الباب فى هدوء ، وظهرت خلفه واحدة من ممرضات المستشفى ، قالت فى احترام :

– الآنسة (سهام) ابنة سيادتك يا دكتور (صبرى) تطلب مقابلة الدكتور (أشرف) فى حجرته .

كان الخبر مفاجئاً لكليهما ، فتبادلا نظرة دهشة ، قبل أن يقول الدكتور (صبرى) فى حماس عجيب :

– أخبريها أنه سيأتى إليها فورًا .

غادرت الممرضة الحجرة ، وهتف (أشرف) فى دهشة :

– عجباً !! .. إنها أول مرة تأتى فيها (سهام) لزيارتى ، منذ خلافنا .

تألقت عينا الدكتور (صبرى) فى أمل ، وهو يقول :

– لعلها لعبة أخرى من ألعاب القدر يا ولدى .

ثم أردف فى حماس :

– اذهب إليها ، فلا ريب أن زيارتها المفاجئة هذه تحمل أمراً جديداً .

تردد (أشرف) لحظة ، ثم غمغم :

– من يدرى؟ .. ربما بلغ منها الضجر مبلغاً جعلها تأتى إلى هنا ، لتفعل نفس ما فعلته أنا منذ لحظات .

هتف الدكتور (صبرى) فى حماس :

– دعنا لا نسبق الأحداث يا ولدى .. اذهب إليها أولا ، وستعلم منها كل شىء .

استدار (أشرف) يهمّ بمغادرة الحجرة فى قلق ، إلا أن الدكتور (صبرى) أوقفه قائلا :

– انتظر يا (أشرف) .

استدار إليه (أشرف) ، فناوله الدكتور (صبرى) دبلته الذهبية ، وقال :

– ضع هذه فى إصبعك وأنت تلتقى بها .. ومن يدرى ؟ .. فربما ظلت فيه إلى الأبد .

* * *



١٥ - وقاربت الرحلة نهايتها ..

كتم (أشرف) انفعاله القوى ، وهو يعبر حجرته ، وتقع عيناه على وجه (سهام) ..

كانت (سهام) متألقة هذا الصباح أيضاً ، تذوب جمالا ورقة ..

كانت ترتدى ثوباً أنيقاً ذا لون بنفسجي هادىء ، وقد تركت شعرها الأسود ينسدل على كتفيها كنهر حنون ناعم ، وبدت ملامحها غاية فى الرقة ، وهى تتطلع إلى (أشرف) فى هدوء ، حتى أن قلبه خفق بين ضلوعه فى حب ، وهو يقول :

- مرحباً يا (سهام) .. كم تسعدنى رؤيتك .

ابتسمت فى هدوء ، وقالت :

- لقد أتيت فى زيارة عمل ، لو صح القول .

عقد حاجبيه ، وهو يغمغم فى دهشة :

- زيارة عمل ؟!

أجابته فى هدوء :

- نعم .

اتخذ المقعد المقابل لها ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يسألها :

- وما هو نوع العمل ؟

صمتت لحظة ، وكأنها تستجمع شجاعتها وأفكارها ، ثم قالت فى حدة مفاجئة :

- هناك أمر معلق بيننا ، لم نحسمه بعد .

سألها ، وهو يبذل جهداً كبيراً ليحافظ على هدوئه :

- أى أمر هذا ؟

مالت نحوه ، وتطلعت إلى عينيه مباشرة ، ولكنها لم تستطع تحمل نظرات عينيه النفاذتين ، فخفضت عينيها وهى تقول :

- لماذا رفضت معاونتى فى البحث عن حقيقة نسبى ؟

فاجأه سؤالها ، وحمد الله أنها خفضت عينيها ، وإلا رأت شحوب وجهه ، وهو يقول :

- ولماذا السؤال ، مادمنا لا ننوى الاستمرار فى علاقتنا ؟

قالت فى عصبية :

– أريد أن أعرف .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم أجابها فى هدوء :

– لقد قلتها بنفسك .. إننى وصولى منافق مخادع .

هتفت فى ضيق :

– كلا يا (أشرف)، ليس هذا هو السبب الحقيقى .

تضاعفت دهشته ، وانتقلت حيرته إلى صوته ، وهو يغمغم :

– لماذا تغير رأيك فى هذا الشأن ؟

أشاحت بوجهها ، وهى تقول :

– لأننى أصبحت واثقة من أن هذا ليس السبب الحقيقى .

ثم استدارت إليه ، وقالت فى لهجة أقرب إلى التوسل :

– لماذا يا (أشرف) ؟

كان شحوب وجهه أكبر مما يمكنه إخفاءه ، وهو يقول :

– دعينا من هذا الأمر يا (سهام) .

نهضت فى عصبية ، وهى تهتف :

– كلا يا (أشرف) .. لن أتجاهل هذا الأمر أبداً ، ولابد لى من معرفة سرّ عدم رغبتك فى معاونتى .

غمغم فى ألم :

– (سهام) ..

قاطعته فى حدة :

– لقد قضيت ليلتى كلها أبحث عن تفسير مقنع لتراجعك عن اتفاقنا ، ولم أجد إلا تفسيراً واحداً ..

ثم أردفت فى صوت مرتجف صارم :

– إنك كشفت أننى لست ابنة (صبرى مختار) .

ارتجفت عضلات وجهه ، وشحب حتى كاد يتحول إلى اللون الأبيض ، وهو يغمغم فى صعوبة :

– (سهام) ..

قاطعته مرة أخرى ، وهى تهتف فى صوت يجمع بين الحدة والرجاء :

– هل هذا هو السبب الحقيقى يا (أشرف) ؟

تحركت شفتاه ، دون أن يخرج من بينهمـا حرف واحد ، فعادت تهتف فى عصبية :

— أهذا هو السبب يا (أشرف) ؟

أغمض (أشرف) عينيه فى قوة ، وارتجف جسده فى لوعة وألم ..

تمنىٰ لو أن هذا اللقاء لم يكن حقيقة ..

تمنى لو أنه مجرّد كابوس مزعج ، لن يلبث أن يستيقظ منه هانئاً ..

خفق قلبه فى قوة ، والتهبت مشاعره فى عنف ..

ماذا يمكنه أن يفعل ؟ ..

ماذا يقول إزاء إصرارها على معرفة الحقيقة ؟ ..

أنقذته طرقات مفاجئة على باب حجرته ، فأسرع يقول فى صوت مختنق :

— ادخل يا من بالباب .

ابتعدت عنه (سهام) فى غضب ، فى حين تحرك الباب ، وظهرت خلفه (زينب) رئيسة الممرضات ، وهى تقول :

— الدكتور (فايز) اعتذر عن نوبتجيته بسبب ...

بترت عبارتها بغتة ، عندما وقع بصرها على (سهام) ، وتهللت أساريرها ، وهى تهتف فى وُدّ :

— آنسة (سهام) ؟ كم تسعدنى رؤيتك ..

ثم أسرعت إليها ، وضمتها إلى صدرها فى حرارة ، وهى تقول :

— كيف حالك يا بنيتى ؟

أجابتها (سهام) فى برود :

— كيف حالك أنت يا عمتى (زينب) ؟

لم تنتبه (زينب) إلى برود صوت (سهام) ، وقبلتها فى حرارة ، وهى تقول :

— لقد كنت أسعد الناس بسماع خبر خطبتك للدكتور (أشرف) ، فأنا أعرفك منذ طفولتك .. بل منذ مولدك فى (بور سعيد) ، حينما كان الدكتور (صبرى) ما يزال طبيباً صغيراً هناك و ...

برقت عينا (سهام) بغتة ، وتردّدت عبارات (زينب) فى عقلها ..

أعرفك منذ طفولتك ..

منذ مولدك فى (بور سعيد) ..

إذن فـ (زينب) هى مفتاح السر ..

هى التى يمكنها أن تنهى حيرتها ..

أمسكت فجأة بكتفى (زينب) فى قوة ، وهتفت فى حدة أدهشت هذه الأخيرة :

– (زينب) .. هل تذكرين مولدى ؟

غمغمت (زينب) فى دهشة :

– ماذا تعنين يا بنيتى ؟

ازدادت حدة صوت (سهام)، وهى تسألها فى قسوة :

– لقد تبنى الدكتور (صبرى) طفلة .. أليس كذلك ؟

هتف (أشرف) فى جزع :

– (زينب) .

حارت عينا (زينب) بين (أشرف) و(سهام) ، ولكن (سهام) انتزعتها من حيرتها ، وهى تهز كتفيها فى قوة ، وتسألها فى حدة :

– أليس كذلك يا (زينب) ؟

ترقرقت دمعة فى عينى (زينب) ، وهى تغمغم :

– بَلى .. بَلى .. لقد حدث هذا .

اتسعت عينا (سهام) فى ذعر ، ولكنها واصلت أسئلتها فى صرامة :

– أيُّنَا كانت هذه الطفلة المتبناه يا (زينب) ؟ .. أنا أم (منى) ؟

صرخ (أشرف) مرة أخرى فى ألم :

– (زينب) ...

ولكن عينا (سهام) تفجرتا بالدموع ، وهى تسأل (زينب) فى ضراعة :

– من منا يا (زينب) ؟

بدا صوت (زينب) حزيناً بائساً ، وهى تغمغم :

– لست أدرى يابنيتى .. لست أدرى .. أقسم لك .

تنهد (أشرف) فى ارتياح ، ولكن ارتياحه لم يدم إلا لحظة واحدة ، فقد عادت (سهام) تسأل (زينب) فى حدة ، هى أقرب إلى التوسل :

– حسناً .. متى كان ذلك يا (زينب) ؟ .. فى أى شهر من شهور السنة ؟ ..

فى الصيف أم الشتاء ؟

تردّدت (زينب) لحظة ، ولكن (سهام) أخذت تبكى فى حرارة ، وهى تسألها :

– متى يا (زينب) ؟ .. متى ؟

شاركتها (زينب) دموعها ، وخفضت عينيها ، وهى تغمغم :

– إنه تاريخ لا ينسى يا بنيتى .. وما زالت أصوات القنابل تدوى فى أذنى ، وهو يحاول مساعدة الأم الشابة – رحمها الله .

اتسعت عينا (سهام) ، وهى تغمغم فى دهشة :

– أصوات القنابل ؟!

أومأت (زينب) برأسها إيجاباً فى ألم ، وغمغمت فى صوت كسير :

– نعم يابنيتى .. إنه تاريخ لاينسى .. لقد كان ذلك أيام النكسة .. فى يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين .

تراخت قبضتا (سهام) حول كتفى (زينب) ، وسقط ذراعاها إلى جوارها ، واتسعت عيناها فى ذعر ودهشة ، وهى تغمغم :

– فى يونيو ؟!

ثم أخفت وجهها بين راحتيها ، وانخرطت فى بكاء عنيف ، وهى تردّد فى ألم :

– إذن فهى (منى) .. هى الطفلة المتبناه .

* * *



١٦ ـ خداع قلب ..

اتسعت عينا (أشرف) فى ذهــول ، وارتجف قلبه ، وهو ينقل بصره ما بين (زينب) ، التى وقفت تبكى فى انكسار ، و (سهام) التى انخرطت فى بكاء حار ..

لم يستطع أن يصدِّق أذنيه ..

هتف قلبه : إنها خدعة ..

لا شك أنها خدعة ..

لا يمكن أن تكون (منى) هى الابنة المتبناه ..

إنه يعلم جيداً أن هذا خطأ ..

لا يمكن أن تخطىء قوانين الوراثة أبداً ..

لو أن (سهام) تحمل فصيلة الدم (ا ب) ، فمن المستحيل أن تكون ابنة الدكتور (صبرى) وزوجته ...

انتزعته (سهام) من لجة حيرته ودهشته ، حينما أدارت إليه عينيها الدامعتين ، وقالت فى ألم :

ـ هل كنت تعلم ذلك ؟

غمغم فى حيرة :

ـ (سهام) .. إننى ....

تصورت تردّده إيجاباً ، فاتسعت عيناها فى دهشة ، وهتفت :

ـ لماذا لم تخبرنى إذن ؟ .. لماذا تركتنى أتعذب طيلة الوقت ؟ ..

ثم تحوّلت لهجتها إلى الصراخ ، وهى تكرر :

ـ لماذا لم تخبرنى ؟

أجابها صوت هادئ رصين :

ـ لأننى أنا طلبت منه ذلك يا (سهام) .

استدارت عيون الجميع إلى مصدر الصوت ..

إلى الدكتور (صبرى) ..

وهتفت (سهام) فى دهشة :

ـ أنت يا أبى ؟ !

أشار الدكتور (صبرى) إلى (زينب) ، وقال فى لهجة آمرة :

ـ اتركينا وحدنا يا (زينب) .

أسرعت (زينب) تغــادر الحجرة ، وهى تخفى عينيها عن الدكتور (صبرى) فى ندم وألم وخجل ، وأغلقت الباب خلفها، فكررت (سهام) سؤالها فى ألم:

– أنت طلبت منه هذا يا أبى ؟

جاء صوته هادئاً رصيناً ، وهو يقول :

– نعم يا (سهام) .. لقد كشف (أشرف) حقيقة الأمر بالمصادفة البحتة ، وخشيت أنا أن يخبرك بها ، فتتغير مشاعرك نحو شقيقتك (منى) ، فطلبت منه أن يعدنى بألا يعاونك على التوصل للحقيقة .

اتسعت عينا (أشرف) دهشة ، وهتف فى أعماقه :

– إذن فالأمر كله خدعة متقنة ، أعدها الدكتور (صبرى) فى مهـارة .. خدعة أراد بهـا أن يوهم ابنته بتوصلها إلى الحقيقة ، ويعيد إليهـا الثقة فيه هو مرة أخرى .

دارت هذه الأفكار فى ذهنه ، وهو يستمع إلى الدكتور (صبرى) ، الذى واصل حديثه فى هدوء :

– ولقـد حافظ (أشرف) على وعـده برجولة

وشهامة ، وفضّل اتهامك له بالخسة والخيانة على نقضه وعده ، وأنت تواصلين استفزازه وإهانته .

أدارت (سهام) عينيها إلى (أشرف) فى دهشة ، ثم خفضتهما فى ندم ، فى حين استطرد والدها فى هدوء :

– والآن أريد منك يا (سهام) أن تعدينى بألا تعلم (منى) الحقيقة أبداً .

اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تتطلع إليه ، وفتحت فمها ، وكأنها تهم بالحديث ، ولكنها اندفعت فجأة خارج الحجرة ، ودموعها تملأ وجهها ، فى حين ظل الدكتور (صبرى) و(أشرف) ثابتين ، دون أن يحاول أحدهما منعها ، وخيم الصمت التام على جو الحجرة ، قبل أن يتنحنح (أشرف) ، ويغمغم فى صوت خافت :

– هل تظنّ أنها ستصدق ذلك ؟

ترقرقت الدموع فى عينى الدكتور (صبرى) ، وهو يقول :

– نعم يا ولدى .. سيرسو مركبهـا أخيـراً على شاطئ الحقيقة .

غمغم (أشرف) فى تردّد :

– الحقيقة ؟ !

خفض الدكتور (صبرى) عينيه ، وغمغم فى صوت حزين :

– نعم يا بنى .. الحقيقة .

تطلع إليه (أشرف) لحظة فى دهشة ، ثم اغتصب ضحكة قصيرة ، وهو يقول :

– نعم يا سيدى .. لقد كانت خدعتك متقنة هذه المرة ، حتى أنها بدت تماماً كالحقيقة .

تهاوت دمعة من عينى الدكتور (صبرى) ، لتستقر على أرضية الحجرة ، وهو يغمغم :

– لم تكن هناك ذرة واحدة من الخداع فيما ذكرته (زينب) يا (أشرف) .

هتف (أشرف) فى دهشة :

– ماذا ؟

ثم أردف فى لهجة غاضبة حادة :

– هل تحاول أن تخدعنى أيضاً يا سيدى ؟ .. أنت

تعلم مثلى أن قوانين الوراثة لا يمكنها أن تخطئ ، وأن (سهام) لا يمكنها أن تكون ابنتك .

غمغم الدكتور (صبرى) فى صوت كسير :

– إننى لم أقل العكس يا ولدى .

هتف (أشرف) فى حدّة :

– لماذا تحاول إقناعى إذن بأن ... ؟

ثم اتسعت عيناه فى ذعر ، وبتر عبارته ، ليقول فى صوت متردّد :

– لحظة .. هل تعنى أن ... ؟

انهمرت دموع الدكتور (صبرى) غزيرة ، وهو يقول :

– نعم يا ولدى .. كلتاهما ليست ابنتى .

تهاوى (أشرف) فوق مقعده من شدة المفاجأة ، وهو يردّد فى ذهول :

– يا إلهى !! .. يا إلهى !!

* * *

١٧ ـ وانتهت الرحلة ..

عادت (سهام) إلى الڤيلا حزينة دامعة ، وتوقفت لحظة لتجفف دموعها ، قبل أن تعبر بوابتها ..

استعاد عقلها تفاصيل حديث (زينب) ، وحديث والدها ، وبكى قلبها بدموع خفية ، لها حرارة النار ، وحدة نصل سيف لامع ..

إذن فـ (منى) ليست شقيقتها ..

ليست ابنة (صبرى مختار) ..

شعرت بالندم لبحثها عن هذه الحقيقة ، التى آلمت قلبها إلى هذا الحد ..

شعرت بالشفقة نحو (منى) ، وبالحنان يغمر قلبها تجاهها . .

تذكرت حبها لها ، وعلاقتهما الحميمة، التى كثيراً ما تجاوزت حدود الأخوة إلى الصداقة غير المحدودة ، التى نادراً ما تتواجد فى هذا العالم ..

كانت (منى) لها دوماً شقيقة حنونـًا ، وأمـًّا رءومـًا ، وصديقة وفية مخلصة ..

تذكرت قول والدها ، وهو يطلب منها أن تعده بألا تعلم (منى) السر ..

كيف يطلب منها ذلك ؟

كيف يتصور أنها قادرة على إيذاء قلب أحبّ الناس إليها ؟ ..

اندفعت إلى الڤيلا ، وقد انتابها حنان قوى ، وتدفقت فى قلبها مشاعر حب صافية ، وهتف فى لهفة :

ـ (منى) .. (منى) .. أين أنت ؟

جاءها صوت (منى) من الطابق العلوى :

ـ أنا هنا يا (سهام) .

قفزت درجات السلم فى لهفة ، والتقت بـ (منى) أعلاه ، فأحاطتها بذراعيها فى حنان ، وضمتها إلى صدرها فى لهفة ، وهى تقول فى حرارة :

ـ أنا أحبك يا (منى) .. أحبك حبـًّا يفوق الوصف .

ضحكت (منى) فى دهشة ، وقالت :

ـ وأنا أيضاً أحبك يا (سهام) ، ولكن ما مناسبة هذا القول ؟

قبلتها (سهام) فى حرارة ، وقالت دون أن تحاول إخفاء الدموع ، التى سالت من عينيها الجميلتين :

– أنت لى نعم الشقيقة والصديقة .

تطلعت إليها (منى) فى دهشة، ثم ابتسمت، وقالت :

– هل نجحت الخطة التى أشرت عليك بها ؟

سألتها (سهام) فى دهشة :

– الخطة ؟! .. أية خطة ؟

ابتسمت (منى) فى مرح ، وقالت :

– خطة العودة لحب (أشرف).. هل أقنعك مبرره ؟

أدهشها أن هتفت (سهام) :

– يا إلهى !! .. (أشرف) .

ثم أسرعت تهبط فى درجات السلم، وتندفع إلى خارج الفيلا ، وقبل أن تغادرها التفتت إلى(منى)، وهتفت :

– أنا أحبك يا (منى) .

وقفت (منى) تتطلع إلى الباب الذى غادرته (سهام) فى دهشة ، ثم هبطت فى درجات السلم ، ووقفت أسفله تغمغم :

– ماذا أصابها ؟ .. هل يورث الحب الجنون إلى هذا الحد ؟

أتاها صوت أمها الحنون ، وهى تقول :

– وأكثر من هذا يا بنيتى.

التفتت (منى) إلى حيث تقف أمها ، فرأت وجهها مبللا بالدموع ، وقسماته تنم عن حنان دافق ، فاقتربت منها ، وسألتها فى حيرة :

– ماذا أصابكم جميعاً ؟

ضمتها أمها إلى صدرها فى حنان ، وقالت وهى تترك لدموعها العنان :

– حفظكما الله – سبحانه وتعالى – لبعضكما البعض شقيقتين محبتين يا بنيتى .. هذا أسعد أيام حياتى.

فى نفس اللحظة كان (أشرف) يجلس مبهوتاً فى حجرة مكتب الدكتور (صبرى) ، الذى كان يقول فى خفوت :

– بعد عام من زواجنا – أنا وزوجتى – كشفت لنا التحليلات المعملية أنها غير قادرة على الإنجاب أبداً،

وكادت هذه الحقيقة تحطم زواجنا السعيد ، على الرغم من أننى لم أشر إليهما أبداً ، إلا أنها كانت تبكى طوال الوقت ، وتطلب منى أن أتزوج بأخرى ، حتى أحظى بالإنجاب ، وكنت أنا أرفض ذلك فى شدة ، حتى توفيت أم (منى) وهى تلدها ، ولفظت جدتها أنفاسها الأخيرة أمام باب حجرة الولادة .. عندئذ حملت (منى) إلى منزلى ، وعرضت على زوجتى أن نتبناها .

صمت لحظة ليلتقط أنفاسه ، ويخمد بعض انفعاله ، قبل أن يستطرد :

– ولقد جُنّت زوجتى فرحاً بالفكرة ، وغمرت الصغيرة بحنانها الدافق ، وأسبغت عليها كل الحب الذى يمتلىء به قلبها ، فى حين واصلت أنا البحث عن أسرة (منى) ، حتى كشفت أن والدها قد استشهد فى حرب (يونيو) ، ولم أستطع العثور على عائلته أو عائلة أمها ، وهنا احتفظنا بـ (منى) ، واستعادت زوجتى سعادتها ، واسترجعت حياتنا الزوجية هناءتها ، ثم جاءت (سهام) من أم مجهولة ، قضت نحبها أيضاً فى حجرة الولادة .

عاد إلى صمته مرة أخرى ، ثم أردف :

– ويبدو أننا كنا قد أدمنا تربية الأطفال ، ولم تبذل زوجتى جهداً كبيراً لإقناعى بتبنيها أيضاً ، فقد أحببتها منذ وقعت عيناى على محياها الصغير الرقيق .

تنهد فى عمق ، وتابع :

– وكان التبنى كاملا .. وستجد اسمى واسم زوجتى فى خانتى الأم والأب ، فى شهادتى الميلاد ، وأقسمنا أنا وزوجتى على حفظ السر إلى الأبد ، حتى شاء القدر أن يكشفه .

ثم خفض رأسه مغمغماً :

– ولا أظن أننا قصرنا فى رعايتهما .

غمغم (أشرف) فى دهشة :

– قصرتما ؟ !

ثم نهض ، ووضع يده على كف الدكتور (صبرى) ، وهو يقول فى حرارة :

– لقد كنتما رائعين .. لقد منحتماهما حناناً وحبًّا قد لا يمنحهما والدان حقيقيّان لأبنائهما .

اغرورقت عينا الدكتور (صبرى) بالدموع ، وهو يقول :

– أما زِلتَ مصرًّا على الزواج بـ (سهام) ؟

هتف (أشرف) فى إخلاص :

– بل إنه ليشرفنى ذلك يا سيدى .

ثم أردف فى حزن :

– أعنى لو وافقت هى على الزواج منى .

لم يكد يتم عبارته حتى ارتفعت طرقات على باب المكتب ، فقال الدكتور (صبرى) :

– من بالباب ؟

فتحت (زينب) الباب ، وقالت وهى تبتسم :

– هناك حالة عاجلة تحتاج إليك يادكتور (أشرف) .

أسرع (أشرف) يلتقط سماعة الطب ، وهو يقول :

– سأذهب فورًا .

اجتاز حجرة الدكتور (صبرى) فى خطوات سريعة ، وهو يسأل فى اهتمام :

– أى نوع من الحالات العاجلة هى ؟

أجابه صوت رقيق عذب :

– إنها حالة حب يا (أشرف) .

توقف بغتة ، وتطلع فى مزيج من الدهشة والفرح إلى (سهام) ، التى خفضت وجهها الذى تضرج بحمرة الخجل ، وهى تغمغم فى حياء :

– ألا يندرج هذا فى قائمة اختصاصك ؟

تألق الحنان والحب فى عينيه ، وهو يقول فى صوت هامس :

– إنه فى أول القائمة .

جففت(زينب) دمعة مشفقة ، سالت على وجنتها ، وقالت وهى تبتعد :

– أعتقد أنه لديك العلاج المناسب يا دكتور (أشرف) .

وقف كلاهما أمام الآخر صامتاً ، ثم همست (سهام) :

– هل تغفر لى ؟

همس فى حرارة :

- لقد غفرت لك منذ زمن يا حبيبى .

رفعت عينيها إليه فى سعادة ، وقد تهلل محياها كله بالبشر ، ومدّ هو كفه فى هدوء ، واحتضن كفها الرقيقة ، وقال هامساً فى هيام :

- أنت تريدين نفس الثوب الوردىّ .

همست فى خجل :

- وأحمل الحب نفسه .

تشابكت أصابع كفيهما ، وسرى الدفء فى جسديهما ، وتألق الحب فى عيونهما ..

لقد انتهت رحلة العذاب .. وبدأت رحلة الحب ..

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨

المؤلف



د. نبيل فاروق

١٣

رحلة قلب

(سهام) و (منى) شقيقتان،
تحب كل منهما الأخرى حبًا يفوق
الوصف، وينعمان بالعيش بين والديهما
فى أمن وسلام، ثم يظهر (أشرف)، ويتفجر مع
ظهوره سر حرص الوالدان على إخفائه
طويلًا، وتبدأ رحلة البحث عن
الحقيقة.. رحلة قلب حائر..

الثمن فى مصر ١٠٠
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم